

مهرجان الفراءة للجميع

مكتبة
الأسرة
١٩٩٨

المختار من

مقدمة ابن خلدون



0195324

0195324
Bibliotheca Alexandrina



١٤١٨



الهيئة العامة
للكتاب

المختار من مقدمة ابن خلدون

اهداءات ٢٠٠١

المستشار / رايح لطفي جمعة
القاهرة

المختار من مقدمة

ابن خلدون



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(سلسلة التراث)

المختار من مقدمة ابن خلدون

إعداد : د. سمير سرحان

د. محمد عناني

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

الغلاف:

وزارة الثقافة

للغنان جمال قطب

وزارة الإعلام

الإشراف الفني:

وزارة التعليم

للغنان محمود الهندي

وزارة التنمية الريفيه

المشرف العام

المجلس الاعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التثويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلمتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

تصدير

قدمت مكتبة الأسرة فى العام الماضى مقتطفات من مقدمة ابن خلدون اقتصرت على ما أسماه بالمقدمة العامة ، وهى فصول نظرية فى علم التاريخ أصبحت تعتبر أساساً للبحث التاريخى وعلم الاجتماع الحديث ، وقد حاولنا فيها التركيز على ما اعتبره ابن خلدون من أسس التفكير العلمى فى قراءة التاريخ ومعناه وأسلوب الحكم على الروايات وتفسيرها ، وهذا ما يزال أساساً للبحث التاريخى فى العصر الحديث .

وتقدم مكتبة الأسرة هذا العام فصولاً أخرى من المقدمة تتناول ما استخلصه هذا العالم الفد من دراسته للتاريخ القريب ، ولذلك قد يضرب الأمثلة من الوقائع التى كان قريب العهد بها فى شمال إفريقيا وفى الأندلس ، وهو يحلل ويفسر ويناقش بأسلوب يكاد يكون معاصراً ، وتفخر مكتبة الأسرة بأن تطلع أبناء اليوم على فكر عربى عبقرى سبق النهضة الأوربية ، وما زال فكره حياً نابضاً بعد انقضاء ما يقرب من ستة قرون .

مكتبة الأسرة

الفهرس

الصلحة

الموضوع

- ١ - فصلُ « فى أن كل دولة لها حصّة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها » . ١٥
- ٢ - فصلُ « فى أن الاوطان كثيرة القبائل قل أن تستحكم فيها دولة » . ١٧
- ٣ - فصلُ « فى أن من طبيعة الملك الإنفراد بالمجد » . ٢١
- ٤ - فصلُ « فى أن من طبيعة الملك الترف » . ٢٢
- ٥ - فصلُ « فى أن من طبيعة الملك الدعة والكون » . ٢٣
- ٦ - فصلُ « فى أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الإنفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم » . ٢٤
- ٧ - فصلُ « فى أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص » . ٢٨
- ٨ - فصلُ « فى إنتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة » . ٣٢
- ٩ - فصلُ « فى أن الترف يزيد الدولة فى أولها قوة إلى قوتها » . ٣٧

- ١٠ - فصلٌ « في أطوار الدولة وإختلاف أحوالها ، وخلق أهلها بإختلاف الأطوار » ٣٨
- ١١ - فصلٌ « في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها » . ٤١
- ١٢ - فصلٌ « في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصيته بالموالى والمصطنعين » . ٥٥
- ١٣ - فصلٌ « في أحوال الموالى والمصطنعين فى الدول » . ٥٧
- ١٤ - فصلٌ « فيما يعرض فى الدول من حجب السلطان والإستبداد عليه » . ٦٠
- ١٥ - فصلٌ « فى حقيقة الملك وأصنافه » . ٦٢
- ١٦ - فصلٌ « فى معنى البيعة » . ٦٤
- ١٧ - فصلٌ « فى ولاية العهد » . ٦٦
- ١٨ - فصلٌ « فى الخطط الدينية والخلافية » . ٨٢
- ١٩ - فصلٌ « فى اللقب بأمر المؤمنين أنه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء » . ٩٨
- ٢٠ - فصلٌ « فى مراتب الملك والسلطان وألقابها » . ٩٩
- ٢١ - فصلٌ « فى الحروب ومذاهب الأمم فى ترتيبها » . ١٤٢

- ٢٢ - فصلٌ « في الجباية وسبب قتلها وكثرتها » . ١٥٢
- ٢٣ - فصلٌ « في ضرب المكوس أواخر الدولة » . ١٥٥
- ٢٤ - فصلٌ « في أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا
مفسدة للجباية » . ١٥٦
- ٢٥ - فصلٌ « في أن الظلم مؤذنٌ بخراب العمران » . ١٦١
- ٢٦ - فصلٌ « في أن النهيم إذا نزل بالدولة لا يرتفع » . ١٦٩
- ٢٧ - فصلٌ « في كيفية طروق الخلل للدولة » . ١٧١

فصل

فى أن كل دولة لها حصّة من الممالك والأوطان لاتزيد عليها

والسببُ فى ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها ، لأبد من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التى تصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو ، وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك . فإذا توزعت العصابات كلها على الثغور والممالك ، فلأبد من نقاد عددها ، وقد بلغت الممالك حيثئذ إلى حد يكون ثغراً للدولة وتحملاً لوطئها ، ونطاقاً لمركز ملكها . فإن تكثفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها ، بقى دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمُحاور ، ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة .

وما كانت العصابة موفورة ، ولم ينفذ عددها فى توزيع الحصص على الثغور والنواحي ، بقى فى الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية ، حتى يبتسح نطاقها إلى غايته . وأللة الطبيعية فى ذلك ، هى قوة العصية من سائر القوى الطبيعية . وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشأنها ذلك فى فعلها . والدولة فى مركزها أشد مما يكون فى الطرف والنطاق ، وإذا انتهت إلى النطاق الذى هو الغاية ، عجزت وأفسرت عما

وَرَأَاهُ ، شَأْنُ الْأَشْمَعَةِ وَالْأَنْوَارِ إِذَا اتَّبَعَتْ مِنَ الْمَرَكَزِ وَالِدَوَائِرِ الْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنَ الْغُرِّ^(١) عَلَيْهِ . ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَالضَّعْفُ ، فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي التَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ الْأَطْرَافِ ، وَلَا يَزَالُ الْمَرْكَزُ مُحْفُوظًا ، إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الْأَمْرِ جُمْلَةً ، فَمَحِيتُهُ يَكُونُ ، انْقِرَاضُ الْمَرْكَزِ .

وَإِذَا غَلِبَ عَلَى الدَّوْلَةِ مَرْكَزُهَا ، فَلَا يَنْقَعُهَا بَقَاءُ الْأَطْرَافِ وَالنَّطَاقِ بَلْ تَضْمَحِلُ لَوْحَتِهَا ، فَإِنَّ الْمَرْكَزَ كَالْقَلْبِ الَّذِي تَتَّبِعُ مِنْهُ الرُّوحُ ، فَإِذَا غَلِبَ عَلَى الْقَلْبِ وَمَلَكَ اتَّهَزَمَ جَمِيعُ الْأَطْرَافِ .

وَانْظُرْ هَذَا فِي الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ : كَانَ مَرْكَزُهَا الْمَدَائِنُ ، فَلَمَّا غَلِبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْمَدَائِنِ انْقَرَضَ أَمْرُ فَارِسَ أَجْمَعٍ ، وَلَمْ يَنْفَعِ يَزْدَجَرْدُ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْ أَطْرَافِ مَمَالِكِهِ . وَيَالْعَكْسَ مِنْ ذَلِكَ الدَّوْلَةُ الرُّومِيَّةُ بِالشَّامِ لَمَّا كَانَ مَرْكَزُهَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ وَعَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ بِالشَّامِ ، تَحِيَّزُوا إِلَى مَرْكَزِهِمُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَلَمْ يَضُرَّهُمْ انْتِرَاعُ الشَّامِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، فَلَمْ يَزَلْ مُلْكُهُمْ مُتَّصِلًا بِهَا إِلَى أَنْ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِ .

وَانْظُرْ أَيْضًا شَأْنَ الْعَرَبِ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ : لَمَّا كَانَتْ عَصَابَتُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَبَصْرَةَ لَأَسْرَعَ وَقْتُ ثُمَّ

(١) أى على أثر الغر عليه بحصاة مثلا .

تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ السِّنْدِ وَالْحَبْشَةِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى
الْأَنْدَلُسِ .

فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَتَزَلُّوْهَا حَامِيَةً ، وَتَقَدَّ
عَدَدُهُمْ فِي تِلْكَ التَّوْزِيَعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ الْفَتْوحَاتِ بَعْدُ وَانْتَهَى أَمْرُ
الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَتَجَاوَزْ تِلْكَ الْحُدُودَ ، وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ الدَّوْلَةُ حَتَّى تَأَذَّنَ اللَّهُ
بِانْقِرَاضِهَا . وَكَذَا كَانَ حَالُ الدُّوَلِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ؛ كُلُّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ
الْقَائِمِينَ بِهَا فِي الْفَلَةِ وَالْكَثَرَةِ ، وَعِنْدَ نَقَادِ عَدَدِهِمْ بِالتَّوْزِيْعِ ، يَنْقَطِعُ لَهُمْ
الْفَتْحُ وَالْإِسْتِيلَاءُ : سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

فصل

فِي أَنَّ الْوَطَانَ الْكَثِيرَةَ الْقِبَائِلِ ، قَلَّ أَنْ تَسْتَحْكَمَ فِيهَا دَوْلَةٌ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافُ الْأَرْوَاحِ وَالْأَهْوَاءِ ، وَأَنَّ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا
هَوًى وَعَصِيَّةٌ تُمَانِعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ الْانْتِقَاضُ عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي
كُلِّ وَقْتٍ ، وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ عَصِيَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ عَصِيَّةٍ مَعْنَى تَحْتِ يَدِهَا تَقْظُنُّ
فِي نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً .

وَأَنْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ ، مِنْذُ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَلِهَذَا
الْعَهْدِ . فَإِنَّ سَاكِنِي هَذِهِ الْوَطَانِ مِنَ الْبَرَبْرِ أَهْلُ قِبَائِلٍ وَعَصِيَّاتٍ ، فَلَمْ

يُغْنِي فِيهِمُ الْغَلْبُ الْأَوَّلُ ، الَّذِي كَانَ لِابْنِ أَبِي سَرْجٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْإِفْرِنجَةِ شَيْئًا ، وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ الثَّوْرَةَ وَالرَّوْدَةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَعَظُمَ الْإِثْمَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ . وَلَكَمَا اسْتَقَرَّ الدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى الثَّوْرَةِ وَالْخُرُوجِ ، وَالْأَخْذِ بِدِينِ الْخَوَارِجِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً .

قَالَ ابْنُ أَبِي رَيْدٍ ، ارْتَدَّتِ الْبَرَابِرَةُ بِالْمَغْرِبِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ إِلَّا لِعَهْدِ وَلَايَةِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ ، فَعَمَّا بَعْدَهُ . وَهَذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ : أَنَّ أَفْرِيقَةَ مُفَرَّقَةٌ لِقُلُوبِ أَهْلِهَا ، إِشَارَةً إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ ، الْحَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْإِذْعَانِ وَالْإِنْفِيَادِ ، وَلَمْ يَكُنْ الْعِرَاقُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ يَتْلُكَ الصِّقَّةُ ، وَلَا الشَّامُ ، إِنَّمَا كَانَتْ ، حَامِيَّتُهَا مِنْ فَارِسٍ وَالرُّومِ ، وَالْكَافَّةُ دَهْمَاءَ ، أَهْلُ مَدُنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا غَلِبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا عَمَانٌ وَلَا مَشَاقٌ . وَالْبَرَبَرُ قِبَائِلُهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى وَكُلُّهُمْ بَادِيَةٌ ، وَأَهْلُ عَصَائِبٍ وَعَشَائِرَ ، وَكُلُّمَا هَلَكَتْ قَبِيلَةٌ ، عَادَتْ الْأُخْرَى مَكَانَهَا ، وَإِلَى دِينِهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالرَّوْدَةِ ، فَطَالَ أَمْرُ الْعَرَبِ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ بِوَطْنِ أَفْرِيقَةَ وَالْمَغْرِبِ . وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ بِالشَّامِ لِعَهْدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ : كَانَ فِيهِ مِنْ قَبَائِلِ فَلَسْطِينَ وَكَنْعَانَ وَبَنِي عَيْصُو وَبَنِي مَدْيَنَ وَبَنِي لُوطَ وَالْيُونَانِ وَالْعَمَالِقَةَ وَأَكْرِيكَشَ وَالنَّبْطَ ، مِنْ جَانِبِ الْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلَ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً وَتَوَعَّا فِي الْعَصِيَّةِ ، فَصَعُبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ تَمْهِيدُ دَوْلَتِهِمْ ،

وَرُسُوحُ أَمْرِهِمْ ، وَاضْطَرَبَ عَلَيْهِمُ الْمُلْكُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . وَسَرَى ذَلِكَ
الْخِلَافُ إِلَيْهِمْ ، فَاخْتَلَفُوا عَلَى سُلْطَانِهِمْ ، وَخَرَجُوا عَلَيْهِ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
مُلْكٌ مُوَلَّدٌ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ ، إِلَى أَنْ غَلِبَهُمُ الْفَرَسُ ثُمَّ يُونَانُ ، ثُمَّ السُّرُومُ
آخِرَ أَمْرِهِمْ عِنْدَ الْجَلَاءِ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

وَبِعَكْسِ هَذَا أَيْضًا : الْأَوْطَانُ الْخَالِيَةُ مِنَ الْعَصَبِيَّاتِ يَسْهُلُ تَمْهِيدُ
الدَّوْلَةِ فِيهَا ، وَيَكُونُ سُلْطَانُهَا وَارِعًا لِقِلَّةِ الْهَزَجِ ^(١) وَالْإِتْقَاضِ ، وَلَا تَحْتَاجُ
الدَّوْلَةُ فِيهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا
الْعَهْدِ ؛ إِذْ هِيَ خَلُوٌ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ ، كَانَ لَمْ يَكُنِ الشَّامُ مَعْدِنًا
لَهُمْ كَمَا قُلْنَا . فَمُلْكُ مِصْرَ فِي غَايَةِ السَّدْعَةِ وَالرُّسُوحِ لِقِلَّةِ الْخَوَارِجِ ،
وَأَهْلِ الْعَصَابِ . إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ ، وَدَوْلَتُهَا قَائِمَةٌ بِمُلُوكِ التُّرْكِ
وَعَصَابِيهِمْ يَغْلِبُونَ عَلَى الْأَسْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، وَيَتَقَلُّ الْأَمْرُ فِيهِمْ مِنْ
مَنْبِتٍ إِلَى مَنْبِتٍ وَالْخِلَافَةُ مُسَمَّاةٌ لِلْعَبَّاسِيِّ مِنْ أَعْقَابِ الْخُلَفَاءِ ، بِبَغْدَادَ ؛
وَكَذَا شَأْنُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ : فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ ابْنِ الْأَحْمَرِ سُلْطَانُهَا لَمْ تَكُنْ
لِأَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ بِقُوَّةٍ ، وَلَا كَانَتْ كَرَاتٍ إِنَّمَا يَكُونُ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ
الْعَرَبِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بَقَا مِنْ ذَلِكَ الْقِلَّةِ .

(١) الفتنة والقتل .

(٢) مرة بعد مرة .

وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ لَمَّا انْقَرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْهُمْ ، وَمَلَكَهُمْ
الْبَرْبَرُ مِنْ لِمْتُونَةَ وَالْمُوَحِّدِينَ سَمِعُوا مَلَكَتْهُمْ وَثَقُلَتْ وَطَانُهُمْ عَلَيْهِمْ ،
فَأَشْرَبَتِ الْقُلُوبُ بَغْضَاءَهُمْ ، وَأَمَكَنَ الْمُوَحِّدُونَ وَالسَّادَةُ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ
كَثِيرًا مِنَ الْحُصُونِ لِلطَّاعِيَةِ فِي سَبِيلِ الاسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى شَأْنِهِمْ ، مِنْ
تَمَلُّكِ الْحَضَرَةِ مَرَاكِشَ : فَاجْتَمَعَ مَنْ كَانَ بَقِيَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ
الْقَدِيمَةِ مَعَادُنٌ مِنْ يَبُوتِ الْعَرَبِ تَجَافَى بِهِمُ الْمَنِيْبُ عَنِ الْحَاضِرَةِ وَالْأَمْصَارِ
بَعْضُ الشَّيْءِ ، وَرَسَخُوا فِي الْعَصِيَّةِ مِثْلَ ابْنِ هُوْدٍ وَابْنِ الْأَحْمَرِ وَابْنِ
مَرْدَيْشَ وَأَمْثَلِهِمْ ، فَقَامَ ابْنُ هُوْدٍ بِالْأَمْرِ وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
بِالْمَشْرِقِ ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ فَتَبَدُّوا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ ،
وَأَخْرَجُوهُمْ وَاسْتَقَلَّ ابْنُ هُوْدٍ بِالْأَمْرِ فَسَى الْأَنْدَلُسَ . ثُمَّ سَمَا ابْنُ الْأَحْمَرِ
لِلْأَمْرِ وَخَالَفَ ابْنُ هُوْدٍ فِي دَعْوَتِهِ ، فَدَعَا هُوَذَا لِابْنِ أَبِي حَفْصٍ صَاحِبِ
أَفْرِيقِيَّةٍ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَقَامَ بِالْأَمْرِ وَتَنَاوَلَهُ بِعِصَابَةِ قَرِيْبَةٍ مِنْ قَرَابَتِهِ كَانُوا
يُسَمُّونَ الرُّؤْسَاءَ ، وَلَمْ يَحْتَجْ لَكثَرٍ مِنْهُمْ لِقَلَّةِ الْعَصَابِ بِالْأَنْدَلُسِ وَإِنِّهَا
سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ ، ثُمَّ اسْتَظْهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الطَّاعِيَةِ بِمَنْ يُجِيزُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ مِنْ
أَعْيَاصٍ ^(١) زَنَاتَةً ، فَصَارُوا مَعَهُ عُصْبَةً عَلَى الْمُتَاغِرَةِ وَالسَّرِيَّاطِ . ثُمَّ سَمَا
لِصَاحِبِ مِنْ مَلُوكِ زَنَاتَةَ أَمَلٌ فِي الْاسْتِيْلَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، فَصَارَ أَوَّلُكَ
الْأَعْيَاصُ عِصَابَتَهُ ابْنُ الْأَحْمَرِ عَلَى الْاِمْتِنَاعِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَأْتَلَ أَمْرُهُ ، وَرَسَخَ

(١) من يعتبرون أصولها وذوى للكانة فيها .

وَالْفَتْهُ النَّفُوسُ ، وَعَجَزَ النَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِهِ وَوَرِثَهُ أَعْقَابُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ . فَلَا تَظُنُّ أَنَّهُ بَغِيرُ عَصَابَةٍ فَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وَقَدْ كَانَ مَبْدُؤُهُ بِعَصَابَةٍ ، إِلَّا أَنَّهُا قَلِيلَةٌ ، وَعَكْسَى قَدْرَ الْحَاجَةِ : فَإِنَّ قُطْرَ الْأُنْدُلُسِ لَلْعَصَابِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ فِيهِ ، يُغْنِي عَنْ كَثْرَةِ الْعَصِيَّةِ فِي التَّغْلِبِ عَلَيْهِمْ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

فصل

في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمد

وذلك أن الملكَ كَمَا قَدَّمَنا ، إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصِيَّةِ . وَالْعَصِيَّةُ مُتَالِفَةٌ مِنْ عَصَبَاتٍ كَثِيرَةٍ وَتَكُونُ وَاحِدَةً مِنْهَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى كُلِّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا حَتَّى تُصِيرَهَا جَمِيعًا فِي ضِمْنِهَا ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْاجْتِمَاعُ وَالْغَلْبُ عَلَى النَّاسِ وَالِدُولُ . وَسِرُّهُ أَنَّ الْعَصِيَّةَ الْعَامَّةَ لِلْقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ الْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ ؛ وَالْمِزَاجُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنِ الْعُنَاصِرِ ، وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ الْعُنَاصِرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مُتَكَافِئَةً فَلَا يَقَعُ مِنْهَا مِزَاجٌ أَصْلًا ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا هِيَ الْغَالِبَةُ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى تَجْمَعَهَا ، وَتَوَلِّقَهَا وَتُصِيرَهَا عَصِيَّةً وَاحِدَةً شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْعَصَائِبِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ضِمْنِهَا ، وَتِلْكَ الْعَصِيَّةُ الْكُبْرَى ، إِنَّمَا تَكُونُ لِقَوْمِ أَهْلِ بَيْتِ وَرِئَاسَةِ فِيهِمْ ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا عَلَيْهِمْ ، فَيَتَّعِينَ رَئِيسًا لِلْعَصِيَّاتِ كُلِّهَا لِغَلْبِ مَنِّيهِ لِجَمِيعِهَا .

وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ ، فَمِنَ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ خُلِقَ الْكِبَرُ وَالْأَنَفَةُ ،
فَيَأْتِفُ حَيْثُ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِبَاعِهِمْ وَالْتِحَاكُمِ فِيهِمْ ،
وَيَجِيءُ خُلُقُ الثَّالِثِ الَّذِي فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ ، مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ مِنْ انْفِرَادِ
الْحَاكِمِ لِقَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ الْحُكَّامِ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ
لَفَسَدَتَا ﴾ (١) فَتُجَدِّعُ حَيْثُ أَثَرُ الْعَصِيَّاتِ وَتُفْلِحُ شَكَايَتُهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا
إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي السُّحُكُمِ ، وَتَفْرُعُ عَصِيَّتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَيَتَفَرَّدُ بِهِ مَا
اسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتْرَكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِى الْأَمْرِ ، لَا نَافَةَ وَلَا جَمَلًا فَيَتَفَرَّدُ
بِذَلِكَ الْمَجْدُ بِكُلِّيَّتِهِ ، وَيُدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ . وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلِ مِنْ
مُلُوكِ الدَّوْلَةِ ، وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّالِثِ عَلَى قَدْرِ مُنَافَعَةِ الْعَصِيَّاتِ
وَقُوَّتِهَا . إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا يَبْدُ مِنْهُ فِى الدُّوَلِ ، سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ
وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

فصل

فى أن من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا ، كَثُرَ
رِيَاشَتُهَا وَنِعْمَتُهَا ، فَكَثُرَ عَوَائِدُهُمْ وَتَجَارَوْنَ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخَشُونَتُهُ ،
إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَرِيسَتِهِ ، وَيُنْعَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِى عَوَائِدِهِمْ

(١) الآية رقم : ٢٢ من سورة الانبياء .

وَأَحْوَالِهِمْ ، وَتَصْيِيرُ لِنِكَ التَّوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٌ فِي تَحْصِيلِهَا وَيَتَزَعُونَ
مَعَ ذَلِكَ إِلَى رِقَةِ الْأَحْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ ، وَالْفُرُشِ وَالْأَنْيَةِ ،
وَيَتَخَاخَرُونَ فِي ذَلِكَ ، وَيَقَاخَرُونَ فِيهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ ، فِي أَكْلِ الطَّيِّبِ
وَلَيْسِ الْأَنْبِيَّ وَرُكُوبِ الْفَارَةِ^(١) ، وَيَتَأَغَى خَلْفُهُمْ فِي ذَلِكَ خَلْفُهُمْ إِلَى آخِرِ
الدَّوْلَةِ ، وَعَلَى قَدَرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرْفَهُمْ فِيهِ ، إِلَى أَنْ
يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ الْغَايَةَ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ
قَبْلَهَا ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

فصل

فِي أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْمَلِكِ الدَّعَاةَ وَالسَّكُونَ

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إِلَّا بِالْمُطَالَبَةِ ، وَالْمُطَالَبَةُ غَايَتُهَا
الْغَلَبُ وَالْمُلْكُ ؛ وَإِذَا حَصَلَتِ الْغَايَةُ انْقَضَى السَّعْيُ إِلَيْهَا (قَالَ الشَّاعِرُ)^(٢) :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا

فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

فَإِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنِ الْمَتَاعِ الَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فَسَى
طَلَبِهِ ، وَاتَّزُوا الرَّاحَةَ وَالسَّكُونَ وَالِدَّعَاةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ

(١) الْفَارَةُ : الْجَيْدُ لِلْسَّيْرِ ؛ يَتَأَغَى : يَتَأَفَسُّ .

(٢) هُوَ أَبُو صَخْرٍ وَمَطْلَعُ الْقَمَيْدَةِ : لِلْيَلَى بِلَاتِ الْجَيْشِ دَارُ غُرْفَتِهَا . . . الْبَيْت .

مِنَ الْمَبْنِيِّ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَلَّاسِ ، فَيَتَوَنَّقُصُورَ وَيُجْرُونَ الْمِيَاءَ
وَيَغْرِسُونَ الرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتَعُونَ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا ، وَيُؤْتِرُونَ الرِّاحَةَ عَلَى
الْمَتَاعِ ، وَيَتَأَنَّقُونَ فِى أَحْوَالِ الْمَلَّاسِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْأَيْنَةِ وَالْفُرْشِ مَا
اسْتَطَاعُوا ، وَيَأْلَفُونَ ذَلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ
يَتَرَايَدُ فِيهِمْ إِلَى أَنْ يَتَذَنَّ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى
أَعْلَمُ .

فصل

فى أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد

وحصول الترف والدعة

أقبلت الدولة على الهرم

وبيانه من وجوه :

الأول أنها تقتضى الانفراد بالمجد كما قلناه ، وَمَا كَانَ الْمَجْدُ مُشْتَرَكًا
بَيْنَ الْعِصَابَةِ ، وَكَانَ سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَتْ هِمَمُهُمْ فِى التَّغْلِبِ عَلَى الْغَيْرِ
وَالذَّبِّ عَنِ الْحَوَازَةِ أَسْوَأَ فِى طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شَكَايِمِهَا ، وَمَرَمَاهُمْ إِلَى الْعِزِّ
جَمِيعًا يَسْتَطِيعُونَ الْمَوْتَ فِى بِنَاءِ مَجْدِهِمْ ، وَيُؤْتِرُونَ الْهَلَكَةَ عَلَى فَسَادِهِ ؛
وَإِذَا انْفَرَدَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِالْمَجْدِ قَرَعَ عَصِيَّتَهُمْ وَكَبَحَ مِنْ أَعْيَتِهِمْ ، وَاسْتَأَثَرَ
بِالْأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنِ الْغَزْوِ وَفُشِلَ رِيسُحُهُمْ وَرَدِمُوا الْمَذَلَّةَ

وَالْإِسْتِعْبَادَ ، ثُمَّ رُبِّي الْجِيلَ الثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ مِنَ
الْعَطَاءِ أَجْرًا مِنَ السُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ الْحِمَايَةِ وَالْمَعُونَةِ لَا يَجْرِي فِي عُقُولِهِمْ
سِوَاهُ ، وَكُلُّ أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى الْمَوْتِ ، فَيَصْبِرُ ذَلِكَ وَهَذَا فِي
الدَّوْلَةِ ، وَخَضَعًا مِنَ الشُّوْكَةِ وَثَقِيلُ بِهِ عَلَى مَنَاحِي الضَّعْفِ وَالْهَرَمِ لِفَسَادِ
الْعَصِيَّةِ بِذَهَابِ الْبَاسِ مِنْ أَهْلِهَا .

وَالْوَجْهَ الثَّانِي : أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي التَّرَفَ كَمَا قَدَّمَاهُ ، فَتَكْثُرُ
عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ نَفَقَاتُهُمْ عَلَى أُعْطِيَانِهِمْ وَلَا يَبْقَى دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ . فَالْفَقِيرُ
مِنْهُمْ يَهْلِكُ ، وَالْمُتَرَفُّ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ بِتَرْفِهِ ، ثُمَّ يَزْدَادُ ذَلِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ
الْمُتَأَخِّرَةِ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ الْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ ، وَتَمَسَّهُمُ الْحَاجَةُ
وَتَطَالِبُهُمْ مُلُوكُهُمْ بِحَصْرِ نَفَقَاتِهِمْ فِي الْغَزْوِ وَالْحُرُوبِ فَلَا يَجِدُونَ وَلِيَّةً (١)
عَنْهَا فَيُوقِعُونَ بِهِمُ الْعُقُوبَاتِ ، وَيَتَزَعُّونَ مَا فِي أَيْدِي الْكَثِيرِ مِنْهُمْ
يَسْتَأْثِرُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ ، فَيُضَعِّفُونَهُمْ
لِلذَلِكَ عَنْ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ ، وَيُضَعِّفُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِضَعْفِهِمْ .

وَأَيْضًا : إِذَا كَثُرَ التَّرَفُ فِي الدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ مُقْصَرًا عَنْ
حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمْ ، احْتَاجَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الَّذِي هُوَ السُّلْطَانُ إِلَى الزِّيَادَةِ
فِي أُعْطِيَانِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلْلَهُمْ ، وَيُزِيحَ عِلَلَهُمْ وَالْجِبَايَةَ مُقَدَّارَهَا مَعْلُومٌ ،

(١) يَمْنَى : مَنْلُوحَةٌ ، وَهَذَا الْإِسْتِعْمَالُ غَيْرُ سَلِيمٍ .

وَلَا تَزِيدُ وَلَا تَقْصُرُ . وَإِنْ رَأَيْتَ بِمَا يُسْتَحْدَثُ الْمَكُوسُ قَصِيرٌ مِقْدَارُهَا
بَعْدَ الزِّيَادَةِ مَحْدُودًا ، فَإِذَا وَزَعْتَ الْجَبَابَةَ عَلَى الْأَعْطِيَّاتِ ، وَقَدْ حَدَّثَتْ فِيهَا
الزِّيَادَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَّثَ مِنْ تَرْفِهِمْ وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ ، نَقَصَ عَدَدُ الْحَامِيَةِ
حَيْثُ كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ الْأَعْطِيَّاتِ ، ثُمَّ يَعِظُمُ السَّرَفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ
الْأَعْطِيَّاتِ لِذَلِكَ ، فَيَنْقُصُ عَدَدُ الْحَامِيَةِ ، وَقَالَتْ وَرَائِي إِلَى أَنْ يَعُودَ
الْعَسْكَرُ إِلَى أَقْلِ الْأَعْدَادِ ، فَتَضَعُ الْحَامِيَةُ لِذَلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ
وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا مَنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ الدُّوَلِ ، أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنْ
الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ ، وَيَأْذَنُ اللَّهُ فِيهَا بِالْفَنَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلْقِهِ .

وَأَيْضًا : فَالْتَرَفُ مُفْسِدٌ لِلخَلْقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ أَلْوَانِ الشَّرِّ
وَالسُّفْسَفَةِ وَعَوَائِدِهَا ، كَمَا يَأْتِي فِي فِصْلِ الْحَضَارَةِ فَتُذْهِبُ مِنْهُمْ خِلَالُ
الْخَيْرِ الَّتِي كَانَتْ عَلَامَةً عَلَى الْمُلْكِ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ ، وَيَتَصَفُّونَ بِمَا يَنَاقِضُهَا
مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ ، فَيَكُونُ عَلَامَةً عَلَى الْإِدْبَارِ وَالْانْفِرَاضِ ، بِمَا جَعَلَ اللَّهُ
مِنْ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ ، وَتَأْخُذُ الدَّوْلَةُ مَبَادِيءَ الْعَطَبِ وَتَضَعُ أحوَالَهَا ،
وَتَنْزِلُ بِهَا أَمْرًا مُؤْمِنَةً مِنَ الْهَرَمِ إِلَى أَنْ يَقْضَى عَلَيْهَا .

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ : أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي الدَّعَةَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . وَإِذَا
اتَّخَذُوا الدَّعَةَ وَالرَّاحَةَ مَالًا وَخُلُقًا ، صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ طَبِيعَةً وَجِيلَةً شَانًا
الْعَوَائِدِ كُلِّهَا وَإِيْلَافِهَا ، فَتَرْبِي أجيَالَهُمُ الْحَادِثَةَ فِي غَضَارَةِ الْعَيْشِ وَمِهَادِ
التَّرَفِ وَالدَّعَةِ . وَيَنْقَلِبُ خُلُقُ التَّوَحُّشِ وَيَسُونُ عَوَائِدَ الْبَدَاوَةِ الَّتِي كَانَ بِهَا

الملك من شدة البأس ، وتعود الافتراس ، وركوب اليلداه ، وهداية القفر
فلا يفرق بينهم وبين السوق من الحضر إلا في الثقافة ، والشارة فتضعف
حميتهم ، ويذهب بأسهم ، وتنخسف شوكتهم ويعود وبأل ذلك على
الدولة بما تلبس من ثياب الهرم ، ثم لا يزالون بعوائد الترف والحضارة
والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم ، وينغمسون فيها ،
وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة ، وينسلخون عنها شيئاً
فشيئاً ، وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمداغة حتى يعودوا
عيالاً على حامية أخرى إن كانت لهم .

واعتبر ذلك في الدول التي أخبرها في الصحف لديك تجد ما قلته
لك من ذلك صحيحاً من غير ريب . وربما يحدث في الدولة إذا طرقتها
هذا الهرم بالترف والراحة ، أن يتخير صاحب الدولة أنصاراً وشيعه من
غير جلدتهم ، ممن تعود الخشونة فيتخلد لهم جنداً يكون أصبر على
الحرب ، وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشتط ، ويكون ذلك
دواءً للدولة من الهرم ، الذي عساه أن يطردها حتى يأذن الله فيها بامرئ .

وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق : فإن غالب جندها الموالى
من الترك ، فتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجندين إليهم فرساناً
وجنداً ، فيكونون أجراً على الحرب وأصبر على الشطط من أبناء

الْمَمَالِكِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ وَدَبُّوا فِي مَاءِ النَّعِيمِ وَالسُّلْطَانِ وَظِلِّهِ ، وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كَثِيرًا مَا يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ مِنْ رِثَانَةِ وَالْعَرَبِ ، وَتَسْتَكْثِرُ مِنْهُمْ وَيَتْرَكُ أَهْلَ الدَّوْلَةِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلتَّرَفِ ، فَتَسْتَجِدُّ الدَّوْلَةُ بِذَلِكَ عُمَرَاءَ آخَرَ سَالِمًا مِنَ الْهَرَمِ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

فصل

في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص

إِعْلَمُ أَنَّ الْعُمُرَ الطَّبِيعِيَّ لِلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الْأَطِبَّاءُ ، وَالْمُنْتَجِمُونَ مِائَةً وَعِشْرُونَ سَنَةً ، وَهِيَ الْعُمُرُ فِي كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ الْقِرَاناتِ فَيَزِيدُ عَنْ هَذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ ، فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ الْقِرَاناتِ مِائَةً تَامَةً ، وَبَعْضُهُمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ ، عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ أدِلَّةُ الْقِرَاناتِ عِنْدَ النَّاطِرِينَ فِيهَا وَأَعْمَارُ هَذِهِ الْمِلَّةِ مَا بَيْنَ السِّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ ، وَلَا يَزِيدُ عَلَى الْعُمُرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ إِلَّا فِي الصُّورِ النَّادِرَةِ ، وَعَلَى الْأَرْضِ الْغَرِيبَةِ مِنَ الْفَلَكَ ، كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَلِيلٍ ، مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ .

وَأَمَّا أَعْمَارُ الدُّوَلِ أَيْضًا : وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْقِرَاناتِ إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي الْغَالِبِ لَا تَعْدُو أَعْمَارَ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ ، وَالْجِيلُ هُوَ عُمُرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعُمُرِ الْوَسْطِ ، فَيَكُونُ أَرْبَعِينَ ، الَّذِي هُوَ انْتِهَاءُ النُّمُوِّ وَالنُّشُوءِ

إِلَى غَايَتِهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ (١) ولهذا قُلْنَا : إِنَّ عُمَرَ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ هُوَ عُمَرُ الْجِيلِ ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي حِكْمَةِ التَّيْبَةِ ، الَّذِي وَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْأَرْبَعِينَ فِيهِ قِتَاءُ الْجِيلِ الْأَحْيَاءِ ، وَنَشَأُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَعْهَدُوا الْمَلَأَ وَلَا عَرَفُوهُ فَكُلَّ عَلَى عَتَبَارِ الْأَرْبَعِينَ فِي عُمَرِ الْجِيلِ الَّذِي هُوَ عُمَرُ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ .

وإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمَرَ الدَّوْلَةِ لَا يَعْدُو فِي الْغَالِبِ ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ : لِأَنَّ الْجِيلَ الْأَوَّلَ لَمْ يَزَالُوا عَلَى خُلُقِ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَتِهَا وَتَوْحُّشِهَا مِنْ شَطَفِ الْعَيْشِ وَالْبَسَالَةِ وَالْاِفْتِرَاسِ وَالِاشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ ، فَلَا تَزَالُ بِذَلِكَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ مَحْفُوظَةً فِيهِمْ ، فَحَدَثُهُمْ مُرْهَفٌ وَجَانُّهُمْ مُرْهَبٌ ، وَالنَّاسُ لَهُمْ مَغْلُوبُونَ ، وَالْجِيلُ الثَّانِي تَحَوَّلَ حَالُهُمْ بِالْمُلْكِ وَالْتَرَفِ ، مِنْ الْبِدَاوَةِ إِلَى الْحِضَارَةِ وَمِنْ الشَّطَفِ إِلَى التَّرَفِ وَالْخَصْبِ وَمِنْ الْاِشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ وَكَسَلِ الْبَاقِينَ عَنِ السَّعْيِ فِيهِ ، وَمِنْ عَزِّ الْأَسِطَّةِ إِلَى ذُلِّ الْأَسْتِكَانَةِ ، فَتَنَكَّرَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ بَعْضَ الشَّيْءِ وَتَوَسَّسَ مِنْهُمْ الْمَهَانَةُ وَالْخَضُوعُ ، وَبَقِيَ لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا أَدْرَكُوا الْجِيلَ الْأَوَّلَ وَبَاشَرُوا أَحْوَالَهُمْ وَشَاهدُوا اعْتِزَازَهُمْ وَسَعْيَهُمْ إِلَى الْمَجْدِ ، وَفَرَامِيهِمْ فِي الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَلَا يَسْعُهُمْ تَرْكُ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ مَا ذَهَبَ وَيَكُونُونَ

(١) الآية رقم : ١٥ من سورة الأحقاف .

على رجاءٍ من مُراجعةِ الأحوالِ الَّتِي كَانَتْ لِلجِيلِ الأولِ أو على ظَنٍّ من
وُجُودِهَا فِيهِمْ .

وَأَمَّا الْجِيلُ الثَّالِثُ : فَيَنْسُونَ عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُوعَةَ كَأَن لَمْ تَكُنْ ،
وَيَفْقِدُونَ حِلَاوَةَ^(١) الْعِزِّ وَالْعَصِيَّةَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَكَةِ الْقَهْرِ ، وَيُلْغِ فِيهِمْ
التَّرَفُ غَايَتُهُ بِمَا تَقْتَضِيهِ^(٢) مِنَ النِّعَمِ وَغَضَارَةِ فَيَصِيرُونَ عِيَالًا عَلَى الدَّوْلَةِ ،
وَمِنْ جُمْلَةِ النِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ الْمُحْتَاجِينَ لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ ، وَتَسْقُطُ الْعَصِيَّةُ
بِالْجُمْلَةِ ، وَيَنْسُونَ الْحِمَايَةَ وَالْمُدَافَعَةَ وَالْمُطَالَبَةَ وَيَلْبَسُونَ عَلَى النَّاسِ نَاسِي
الشَّارَةَ وَالزُّيَّ وَدُكُوبَ الْخِيَلِ وَحُسْنَ الشَّقَاقَةِ يُمَوِّهُونَ بِهَا وَهُمْ فِي الْأَكْثَرِ
أَجِبْنَ مِنَ السُّنُونِ عَلَى ظُهُورِهَا . فَإِذَا جَاءَ الْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يَقَاوِمُوا
مُدَافَعَتَهُ ، فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حَيْثُ إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِسَوَاهِمٍ مِنْ أَهْلِ
النَّجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ بِالْمَوَالِي ، وَيَصْطَلِعُ مَنْ يُغْنِي عَنِ الدَّوْلَةِ بَعْضَ الْغِنَاءِ ،
حَتَّى يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاصِهَا ، فَتَذْهَبَ الدَّوْلَةُ بِمَا حَمَلَتْ .

فهذه كَمَا تَرَاهُ ثَلَاثَةُ أَجْيَالٍ فِيهَا ، يَكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَتَخْلُفُهَا ، وَلِهَذَا
كَانَ انْقِرَاصُ الْحَسَبِ فِي الْجِيلِ الرَّابِعِ كَمَا مَرَّ فِي أَنَّ الْمَجْدَ وَالْحَسَبَ ،
إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ . وَقَدْ أَتَيْنَاكَ فِيهِ بِبُرْهَانٍ طَبِيعِيٍّ كَافٍ ظَاهِرٍ مَبْنِيٍّ عَلَى مَا

(١) كذا في الأصل : ولعلها محروقة عن خلال .

(٢) قلبوا فيه من النعيم .

مَهْدَنَاهُ قَبْلُ مِنَ الْمُقَدَّمَاتِ ، فَتَأْمَلُهُ فَلَنْ تَعْدُو وَجْهَ الْحَقِّ ، إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْإِنْصَافِ .

وَهَذِهِ الْأَجْيَالُ الثَّلَاثَةُ : عُمُرُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً عَلَى مَآمَرٍ وَلَا تَعْدُو الدُّوْلُ فِي الْغَالِبِ هَذَا الْعُمُرَ بِتَقْرِيْبٍ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ ، إِلَّا إِنْ عَرَضَ لَهَا عَارِضٌ آخَرَ ، مِنْ فَقْدَانِ الْمَطَالِبِ فَيَكُونُ الْهَرَمُ حَاصِلًا مُسْتَوْتًا ، وَالطَّالِبُ لَمْ يَحْضُرْهَا وَكَوْنِ قَدْ جَاءَ الطَّالِبُ لَمَّا وَجَدَ مُدَافِعًا ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ^(١) ، فَهَذَا الْعُمُرُ لِلدُّوْلَةِ بِمَثَابَةِ عُمُرِ الشَّخْصِ مِنَ التَّرْيُدِ إِلَى سِنِّ الْوُقُوفِ ثُمَّ إِلَى سِنِّ الرُّجُوعِ ، وَلِكِهَذَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّ عُمُرَ الدُّوْلَةِ مِائَةٌ سَنَةً ، وَهَذَا مَعْنَاهُ فَاعْتَبِرْهُ وَاتَّخِذْ مِنْهُ قَانُونًا يُصَحِّحُ لَكَ عَدَدَ الْأَبَاءِ فِي عُمُودِ النَّسَبِ ، الَّذِي تَرِيدُهُ مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ السَّنِينَ الْمَاضِيَةِ ، إِذَا كُنْتَ قَدْ اسْتَرَبْتَ فِي عَدَدِهِمْ ، وَكَانَتْ السَّنُونَ الْمَاضِيَةُ مِنْذُ أَوَّلِهِمْ مُحْصَلَةً لَدَيْكَ فَعَدِّ لِكُلِّ مِائَةٍ مِنَ السَّنِينَ ثَلَاثَةً مِنَ الْأَبَاءِ ، فَإِنْ نَفَدَتْ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ مَعَ نُفُودِ عَدَدِهِمْ فَهُوَ صَاحِبٌ ، وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ بِجِيلٍ فَقَدْ غَلَطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةِ وَاحِدٍ فِي عُمُودِ النَّسَبِ وَإِنْ رَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عِنْدَ السَّنِينَ مِنْ

(١) الآية ٦١ من سورة النحل .

عَدَدِهِمْ إِنْ كَانَ مُحْصَلًا لَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهُ تَجِدَهُ فِي الْغَالِبِ صَحِيحًا ﴿١﴾ وَاللَّهُ
يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ

فصل

في انتقال الدول من البداوة إلى الحضارة

إِعْلَمُ أَنَّ هَلِهِ الْأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوَلِ ، فَإِنَّ الْغَلَبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ
الْمُلْكُ ، إِنَّمَا هُوَ بِالْمَعْصِيَةِ وَبِمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ شِدَّةِ الْبَاسِ وَتَعَوُّدِ الْإِفْتِرَاسِ ،
وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا مَعَ الْبَدَاوَةِ ، فَطَوْرُ الدُّوَلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بِدَاوَةٌ ، ثُمَّ
إِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ تَبَعَهُ الرَّفْعُ ، وَاتَّسَعَ الْأَحْوَالُ . وَالْحِضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَقَنُّنُ
فِي السَّرْفِ وَإِحْكَامُ الصَّنَائِعِ ، الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ الْمَطَابِخِ
وَالْمَسَلَبِسِ وَالْمَبَانِي وَالْفُرُشِ وَالْأَبْنِيَةِ ، وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ ،
فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعٌ فِي اسْتِجَادَتِهِ ، وَالتَّائِقُ فِيهِ ، تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتَلَوُّ
بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَتَكَثَّرُ بِاخْتِلَافِ مَا تَتَرَعُّ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ
وَالْتَنَعُّمِ بِأَحْوَالِ السَّرْفِ ، وَمَا تَتَلَوَّنُ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ فَصَارَ طَوْرُ الْحِضَارَةِ فِي
الْمُلْكِ يَتَّبِعُ طَوْرَ الْبَدَاوَةِ ضَرُورَةً لِضَرُورَةِ تَبَعِيَةِ الرَّفْعِ لِلْمُلْكِ .

وَأَهْلُ الدُّوَلِ أَبَدًا يُقَلِّدُونَ فِي طَوْرِ الْحِضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلدُّوَلَةِ السَّابِقَةِ

(١) الآية رقم ٢٠ من سورة الزمل .

قَبْلَهُمْ . فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ وَمِنْهُمْ فِي الْغَالِبِ يَأْخُذُونَ . وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ
لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ ، وَمَلَكَوْا فَارِسَ وَالرُّومَ وَاسْتَعْدَمُوا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ
، وَلَمْ يَكُونُوا لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحِضَارَةِ ؛ فَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قَدَّمَ
لَهُمُ الْمَرْقُوقَ فَكَانُوا يَحْسِبُونَهُ رِقَاعًا ، وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى
فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجِينِهِمْ مِلْحًا ، وَمِثَالُ ذَلِكَ كَيْسَرٌ ، فَلَمَّا اسْتَعْبَدُوا أَهْلَ
الدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوهُمْ فِي مِهَنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ ، وَاخْتَارُوا مِنْهُمْ
الْمَهَرَّةَ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ وَالْقَوْمَةَ عَلَيْهِمْ ، أَفَادُوهُمْ عِلَاجَ ذَلِكَ وَالْقِيَامَ عَلَى
عَمَلِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ اتِّسَاعِ الْعِيشِ وَالتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ ،
قَبَّلُوكَ الْغَايَةَ فِي ذَلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطُورِ الْحِضَارَةِ وَالسَّرَفِ فِي الْأَحْوَالِ ،
وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِسِ وَالْأَسْلِحَةِ
وَالْفُرْشِ وَالْآثَنِ وَسَائِرِ الْمَاعُونِ وَالْخُرُثَى وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ الْمُبَاهَاةِ
وَالْوُلَايَمِ ، وَلِكِبَالِي الْإِعْرَاسِ^(١) ، فَأَتُوا مِنْ ذَلِكَ وَرَاءَ الْغَايَةِ . وَانْظُرْ مَا
نَقَلَهُ الْمُسْعُودِيُّ وَالطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُمَا فِي إِعْرَاسِ الْمَأْمُونِ بِبُورَانَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ
بْنِ سَهْلِ ، وَمَا بَلَكَ أَبُوهَا لِحَاشِيَةِ الْمَأْمُونِ حِينَ وَافَاهُ فَنُصِي خَطْبَتُهَا إِلَى
دَارِهِ ، بِفِمْ الصُّلْحِ وَرَكِبَ إِلَيْهَا فِي السَّفِينِ ، وَمَا انْفَقَ فِي إِمْلَاكِهَا ، وَمَا
نَحَلَهَا الْمَأْمُونُ ، وَانْفَقَ فِي عَرِسَتِهَا ، تَقَفَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْعَجَبِ .

(١) يعنى ما نسميه الآن حملات الزفاف .

فَمِنْهُ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ نَثَرَ يَوْمَ الْإِمْلَاكِ^(١) فِي الْمَنِيْعِ الَّذِي حَضَرَهُ
حَاشِيَةُ الْمَأْمُونِ : فَتَثَرِ عَلَى الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْهُمْ بَنَادِقَ الْمِسْكِ مَلْتَوْتَةً عَلَى
الرِّقَاعِ بِالضِّيَاعِ ، وَالْعَقَارِ مُسَوَّغَةً لِمَنْ حَصَلَتْ فِي يَدِهِ يَفْعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
مَا آدَاهُ إِلَيْهِ الْإِنْفَاقُ وَالْبَحْثُ .

وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ بَدْرَ^(٢) الدَّنَانِيرِ ، فِي كُلِّ بَدْرَةٍ عَشْرَةُ آلَافٍ ، وَفَرَّقَ
عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ بَدْرَ الدَّرَاهِمِ كَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ انْفَقَ عَلَى مُقَامَةِ الْمَأْمُونِ بِدَارِهِ
أَضْعَافَ ذَلِكَ .

وَمِنْهُ : أَنَّ الْمَأْمُونِ أَعْطَاهَا فِي مَهْرِهَا لَيْلَةً رِفَافَهَا أَلْفَ حَصَاةٍ مِنْ
الْيَاقُوتِ ، وَأَوْقَدَ شَمُوعَ الْعَنْبَرِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِائَةً مِنْ ، وَهُوَ رَطْلٌ
وَتَلْثَانُ^(٣) وَيَسَطَ لَهَا فُرْشًا كَانَ الْحَصِيرُ مِنْهَا مَنَسُوجًا بِالذَّهَبِ مُكَلَّلًا بِالْأُزْ
وَالْيَاقُوتِ ، وَقَالَ الْمَأْمُونُ حِينَ رَأَاهُ : قَاتَلَ اللَّهُ أَبَا نُوَّاسٍ ، كَأَنَّهُ أَبْصَرَ هَذَا
حَيْثُ يَقُولُ فِي صِفَةِ الْخَمْرِ :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكَبِيرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا

حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

(١) حفل الزواج .

(٢) جميع بدرة وهي في الأصل عشرة آلاف درهم ، ولكنه فرقها دنانير .

(٣) قوله ثلثان : الذي كتب في اللغة أن الـن رطل وقيل رطلان .

وَأَعَدَّ بِدَارِ الطَّبَّخِ مِنَ الْحَطَبِ ، لِلَّيْلَةِ الْوَكَيْمَةِ نَقْلَ مِائَةِ أَرْبَعِينَ بَغْلًا
مُدَّةَ عَامٍ كَامِلٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَفَنَى الْحَطَبُ لِلَّيْلَتَيْنِ . وَأَوْقَدُوا
النَّجْرِيدَ يَصْبُونُ عَلَيْهِ الزَّيْتَ ، وَأَوْعَزَ إِلَى التَّوَاتِيَةِ بِاحْضَارِ النَّفَنِ لِإِجَارَةِ
الْخَوَاصِ مِنَ النَّاسِ ، بِدِجْلَةٍ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى قُصُورِ الْمَلِكِ بِمَدِينَةِ الْمَأْمُونِ ،
لِحَضُورِ الْوَكَيْمَةِ فَكَانَتْ الْحَرَّاقَاتُ ^(١) الْمُعَدَّةُ لِلذَّكَاءِ ثَلَاثِينَ أَلْفًا ، أَجَارُوا
النَّاسَ فِيهَا أَخْرِيَاتِ نَهَارِهِمْ ، وَكَثِيرٍ مِنْ هَذَا وَأَمثَالِهِ .

وَكَذَلِكَ عَرَسُ الْمَأْمُونِ بْنِ ذِي النُّونِ بَطْلَيْطَلَّةَ : نَقَلَهُ ابْنُ بَسَّامٍ فِي
كِتَابِ الذَّخِيرَةِ وَابْنُ حِبَّانٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا كُلُّهُمْ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبِدَاوَةِ
عَاجِزِينَ عَنْ ذَلِكَ جُمْلَةً لِفَقْدَانِ أَسْبَابِهِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعِهِ فِي
غَضَاضَتِهِمْ وَسَدَاجَتِهِمْ . يُذَكِّرُ أَنَّ الْحَجَّاجَ أَوَّلَمَ فِي اخْتِنَانٍ بَعْضُ وَلَدِهِ
فَاسْتَحْضَرَ بَعْضَ السُّدَّاهِينَ ، يُسَالُّهُ عَنْ وَلَائِمِ الْفُرْسِ ، وَقَالَ : أَخْبِرْنِي
بِأَعْظَمِ صَنِيعٍ شَهِدْتَهُ . فَقَالَ لَهُ : نَعَمْ ، أَيُّهَا الْأَمِيرُ شَهِدْتُ بَعْضَ مَرَايَةِ
كَسْرَى ، وَقَدْ صَنَعَ ، لِأَهْلِ فَارِسَ صَنِيعًا أَحْضَرَ فِيهِ صِحَافَ الذَّهَبِ عَلَى
أُخْرُونَةِ الْفِضَّةِ أَرْبَعًا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَتَحْمِلُهُ أَرْبَعُ وَصَائِفَ ، وَيَجْلِسُ عَلَيْهِ
أَرْبَعَةٌ مِنَ النَّاسِ ، فَإِذَا طَعِمُوا أَتَبِعُوا أَرْبَعَتَهُمُ الْمَائِدَةَ بِصِحَافِهَا وَوُصَفَاتِهَا .
فَقَالَ الْحَجَّاجُ يَا غُلَامُ . انْحَرِ الْجُزْرَ وَأَطْعِمِ النَّاسَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ
بِهَذِهِ الْأَبْهَةِ وَكَذَلِكَ كَانَتْ .

(١) الحراقات بالفتح جمع حرقاة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أُعْطِيَتْ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَوَائِزُهُمْ ، فَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُهَا الْإِبِلَ
أَخَذًا يَمْدَاهِبِ الْعَرَبِ وَيَدَاوِيَهُمْ ، ثُمَّ كَانَتْ الْجَوَائِزُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
وَالْعَبِيدِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَحْمَالِ الْمَالِ وَتُخُوتِ الثِّيَابِ ، وَإِعْدَادِ
الْخَيْلِ بِمَرَاكِهَا . وَهَكَذَا ، كَانَ شَأْنُ كِتَابَةِ مَعَ الْأَغَالِبَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ ، وَكَذَا
بَنِي طُغْجَ بِمِصْرَ ، وَشَأْنُ لِمَثْرُونَةَ مَعَ مُلُوكِ الطُّوَانِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمُوحِدِينَ .
وَكَذَلِكَ شَأْنُ رِثَاةَ مَعَ الْمُوحِدِينَ وَهَلَمْ جَرًا ؛ تَنْتَقِلُ الْحِصَارَةُ مِنَ الدُّوَلِ
السَّالِفَةِ إِلَى الدُّوَلِ الْخَالِفَةِ ، فَانْتَقَلَتْ حِصَارَةُ الْفَرَسِ لِلْعَرَبِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي
الْعَبَّاسِ ، وَانْتَقَلَتْ حِصَارَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ ، إِلَى مُلُوكِ الْمَغْرِبِ مِنَ
الْمُوحِدِينَ ، وَرِثَاةَ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَانْتَقَلَتْ حِصَارَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الدَّيْلَمِ ،
ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ ، ثُمَّ إِلَى السَّلْجُوقِيَّةِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ الْمَمَالِكِ بِمِصْرَ وَالتُّرْكِ
بِالْعِرَاقَيْنِ . وَعَلَى قَدْرِ عِظَمِ الدَّوْلَةِ يَكُونُ شَأْنُهَا فِي الْحِصَارَةِ ، إِذْ أُمُورُ
الْحِصَارَةِ مِنْ تَوَابِعِ التَّرَفِّ ، وَالتَّرَفُّ مِنْ تَوَابِعِ السَّرُورَةِ وَالنَّعْمَةِ ، وَالثَّرْوَةُ
وَالنَّعْمَةُ مِنْ تَوَابِعِ الْمُلْكِ وَمِقْدَارِ مَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ ، فَعَلَى نِسْبَةِ
الْمُلْكِ ، يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ ، فَاعْتَبِرْهُ وَفَقِّهْهُ ، وَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ صَحِيحًا فِي
الْعُمَرَانِ ، وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

فصل

فى آن الترف يزد الدولة فى أولها قوة إلى قوتها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ : أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمُلْكُ وَالتَّرَفُ ، كَثُرَ التَّنَاسُلُ وَالْوُلْدُ وَالْعُمُومِيَّةُ ، فَكَثُرَتِ الْعِصَابَةُ وَاسْتَكْثَرُوا أَيْضًا مِنَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَزَيَّتْ أَجْيَالُهُمْ فِي جَوْ ذَلِكَ النِّعَمِ ، وَالرَّفْعِ فَازْدَادُوا بِهِ عَدَدًا إِلَى عَدَدِهِمْ ، وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ ، بِسَبَبِ كَثَرَةِ الْعِصَابِ حَيْثُ بَكَثَرَةُ الْعَدَدِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْجِيلُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي ، وَآخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي الْهَرَمِ ، لَمْ تَسْتَقِلْ أُولَئِكَ الصَّنَائِعُ وَالْمَوَالِي بِأَنْفُسِهِمْ ، فِي تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ مُلْكِهَا لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، إِنَّمَا كَانُوا عِيَالًا عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَا ، فَإِذَا ذَهَبَ الْأَصْلُ لَمْ يَسْتَقِلَّ الْفَرْعُ بِالرُّسُوخِ ، فَيَذْهَبُ وَيَتَلَاشَى ، وَلَا تَبْقَى الدَّوْلَةُ عَلَى حَالِهَا مِنَ الْقُوَّةِ .

واعتبر هنا بما وقع فى الدولة العربية فى الإسلام ، كَانَ عَدَدُ الْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا لِعَهْدِ السَّنْبُوتِ وَالْخِلَافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرٍّ وَقَحْطَانٍ ، وَلَمَّا بَلَغَ التَّرَفُ مَبَالِغَهُ فِي الدَّوْلَةِ ، وَتَوَفَّرَ ثَمُومُهُم بِتَوَفُّرِ النِّعْمَةِ وَاسْتَكْثَرَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ ، بَلَغَ ذَلِكَ الْعَدَدُ إِلَى أَصْعَافِهِ . يُقَالُ إِنَّ الْمُعْتَصِمَ نَارَكَ عُمُورِيَّةً لَمَّا افْتَحَهَا فِي تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ ، وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هَذَا الْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ، إِذَا اعْتَبِرَتْ حَامِيَتُهُمْ فِي الثُّغُورِ الدَّائِنَةِ وَالْقَاصِيَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، إِلَى الْجُنْدِ الْحَامِلِينَ سَرِيرَ الْمُلْكِ وَالْمَوَالِي

وَالْمُصْطَفَيْنَ . وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ : أَحْصَى بَنُو الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ الْمَأْمُونِ لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا ، بَيْنَ ذُكْرَانٍ وَإِنَاثٍ . فَانْظُرْ مَبَالِغَ هَذَا الْعَدَدِ لِأَقَلِّ مِنْ مَا تَتَى سَنَةً وَاعْلَمْ أَنَّ سَبِيَّهُ الرَّقَّةُ وَالنَّعِيمُ الَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبَّى فِيهِ أَجْيَالُهُمْ ، وَإِلَّا فَعَدَدُ الْعَرَبِ لِأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ ، وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

فصل

في أطوار الدولة واختلاف أحوالها ، وخلق أهلها باختلاف الأطوار

إِعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَقَلَّبُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ ، وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذَلِكَ الطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ ، لِأَنَّ الْخُلُقَ تَابِعٌ بِالطَّبِيعِ لِمَزَاجِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . وَحَالَاتُ الدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لَا تَعْدُو فِي الْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ :

الطَّوْرُ الْأَوَّلُ دَوْرُ الظُّفْرِ بِالْبَغْيَةِ ، وَغَلَبِ الْمَدَانِعِ وَالْمُنَاسِعِ ، وَالْاِسْتِبْلَاءِ عَلَى الْمُلْكِ ، وَانْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي الدَّوْلَةِ السَّالِفَةِ قَبْلَهَا . فَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ أَسْوَأَ قَوْمِهِ فِي اخْتِسَابِ الْمَجْدِ وَجِبَايَةِ الْمَالِ وَالْمَدَافِعَةِ عَنِ الْحُوزَةِ وَالْحِمَايَةِ ، لَا يَتَفَرَّدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْغَلَبُ ، وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدُ بِحَالِهَا .

الطُّورُ الثَّانِي : طُورُ الاسْتِئْذَانِ عَلَى قَوْمِهِ ، وَالْانْفِرَادِ دُونَهُمْ بِالْمُلْكِ وَكَبْحِهِمْ عَنِ التَّطَاوُلِ لِلْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ . وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ مَعْنِيًا بِاصْطِنَاعِ الرِّجَالِ ، وَاتِّخَاذِ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَالْاِسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِجَدْعِ أَثْوَفِ أَهْلِ عَصِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ الْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي نَسَبِهِ ، الضَّارِبِينَ فِي الْمُلْكِ ، بِمِثْلِ سَهْمِهِ ، فَهُوَ يُدَافِعُهُمْ عَنِ الْأَمْرِ ، وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ ، وَيُرَدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنْ يَخْلُصُوا إِلَيْهِ ^(١) حَتَّى يُقَرَّ الْأَمْرُ فِي نَصَابِهِ ، وَيُفَرَّدَ أَهْلُ بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنْ مَجْدِهِ ، فَيُعَانِي مِنْ مُدَافَعَتِهِمْ وَمُعَالَيَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ الْأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ الْأَمْرِ أَوْ أَشَدَّ ، لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ دَافِعُوا الْأَجَانِبَ فَكَانَ ظَهْرَاهُمْ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ بِاجْتِمَاعِهِمْ ؛ وَهَذَا يُدَافِعُ الْأَقْرَبَ لَا يُظَاهِرُهُ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ الْأَبَاعِدِ ، فَيَرْتَكِبُ صَعْبًا مِنَ الْأَمْرِ .

الطُّورُ الثَّالِثُ : طُورُ الْفَرَاغِ وَالِدَّعَةِ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طِبَاعُ الْبَشَرِ إِلَيْهِ ، مِنْ تَحْصِيلِ الْمَالِ وَتَخْلِيدِ الْأَثَارِ ، وَتُعْدِ الصَّبِيَّةِ ؛ فَيَسْتَفْرِغُ وَسْعَهُ فِي الْجَبَابَةِ وَضَبْطِ السَّدَخْلِ وَالْخَرْجِ ، وَإِحْصَاءِ السُّفَقَاتِ وَالْقَصْدِ فِيهَا وَتَشْيِيدِ الْمَبَانِي الْحَافِلَةِ وَالْمَصَانِعِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَمْصَارِ الْمُتَسِّعَةِ ،

(١) يعنى يحول بينهم وبين الوصول الى الحكم .

وَالْهَيْكَلِ الْمُرْتَفِعَةِ ، وَإِجَارَةِ^(١) الْوُفُودِ مِنْ أَشْرَافِ الْأُمَمِ وَوُجُوهِ الْقَبَائِلِ ، وَبَيْتُ الْمَعْرُوفِ فِي أَهْلِهِ ؛ هَذَا مَعَ التَّوسُّعَةِ عَلَى صَنَائِعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِالْمَالِ ، وَالْجَاهِ وَاعْتِرَاضِ^(٢) جُنُودِهِ ، وَإِدْرَارِ أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ فِي أُعْطِيَاتِهِمْ لِكُلِّ هَالِكٍ ، حَتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشِكَايَتِهِمْ^(٣) وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ، فَيُنَافِسُ بِهِمُ الدُّوَلُ الْمُسَالِمَةَ ، وَيُرْهَبُ الدُّوَلُ الْمُحَارِبَةَ . وَهَذَا الطُّورُ آخِرُ أَطْوَارِ الْاسْتِبْدَادِ مِنْ أَصْحَابِ الدُّوَلَةِ ، لِأَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كُلَّهَا مُسْتَقِلُّونَ بِأَرْئِهِمْ ، بَانُونَ لِعِزِّهِمْ مُوَضِّحُونَ الطَّرِيقَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ .

الطُّورُ الرَّابِعُ : طَوْرُ الْقُنُوعِ وَالْمُسَالَمَةِ . وَيَكُونُ صَاحِبُ الدُّوَلَةِ فِي هَذَا قَانِعًا بِمَا بَنَى أَوَّلُوهُ ، سَلِمًا لَأَنْظَارِهِ الْمُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ ، مُقْلِدًا لِلْمَاضِينَ مِنْ سَلَفِهِ ، فَيَتَّبِعُ أَثَارَهُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، وَيَقْتَنِي طُرُقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَتَابِيعِ الْإِتِّدَاءِ ، وَيَرَى أَنَّ فِي الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ قَسَادُ أَمْرِهِ ، وَأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجْدِهِ .

الطُّورُ الْخَامِسُ : طَوْرُ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْدِيرِ ، وَيَكُونُ صَاحِبُ الدُّوَلَةِ فِي

(١) منحها الجوائز الهدايا .

(٢) يعنى عرضهم وتفقد أحوالهم وإن كان اللفظ هنا لا يفيد .

(٣) الشكوة : السلاح .

هَذَا الطَّوْرُ مُتَلَفًا لِمَا جَمَعَ أَوَّلُهُ فِي سَبِيلِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَادُ ، وَالكَرَمُ عَلَى
 بِطَانَتِهِ وَفِي مَسْجَالِهِ ، وَاصْطِنَاعُ أَخْدَانِ السُّوءِ وَخَضْرَاءُ^(١) السِّدَمِ ،
 وَتَقْلِيدُهُمْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَسْتَقِلُّونَ بِحَمْلِهَا ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ
 وَيَلْزَمُونَ مِنْهَا ، مُسْتَفْسِدًا لِكِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ وَصَنَائِعِ سَلَفِهِ ، حَتَّى
 يَضْطَحِقُوا^(٢) عَلَيْهِ ، وَيَتَخَذَلُوا عَنْ نُصْرَتِهِ ، مُضِيْعًا مِنْ جُنْدِهِ بِمَا أَنْفَقَ مِنْ
 أَعْطِيَانَتِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِ ، وَحَجَبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مُبَاشَرَتِهِ وَتَفَقُّدِهِ . فَيَكُونُ
 مُخْرَبًا لِمَا كَانَ سَلَفُهُ يُؤَسِّسُونَ ، وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ . وَفِي هَذَا الطَّوْرِ
 تَحْصُلُ فِي الدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ الْهَرَمِ وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمُزْمِنُ الَّذِي لَا تَكَادُ
 تَخْلُصُ مِنْهُ ، وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ بَرٌّ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ ، كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي
 الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْرُدُهَا وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

فصل

فِي أَنَّ آثَارَ الدَّوْلَةِ كُلِّهَا عَلَى نِسْبَةِ قُوَّتِهَا فِي أَصْلِهَا

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ الْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا كَانَتْ
 أَوَّلًا ، وَعَلَى قَدَرِهَا يَكُونُ الْأَثَرُ . فَمِنْ ذَلِكَ مَسَابِقُ الدَّوْلَةِ وَهَيَاكِلُهَا
 الْعَظِيمَةُ ، فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ الدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا ؛ لِأَنَّهَا لَا تَبْنِي إِلَّا

(١) أصحاب المظاهر الخادعة من فؤى اللاتبات السيئة .

(٢) يطوون قلوبهم على الضغينة .

بِكثْرَةِ الْفَعْلَةِ ، واجْتِمَاعِ الْأَيْدِي عَلَى الْعَمَلِ بِالتَّعَاوُنِ فِيهِ . فَإِذَا كَانَتْ
الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسَبْحَةُ الْجَوَانِبِ ، كَثِيرَةُ الْمَمَالِكِ وَالرَّعَايَا ، كَانَ الْفَعْلَةُ
كَثِيرِينَ جِدًّا ، وَحَشِرُوا مِنْ أَفَاقِ الدَّوْلَةِ وَأَفْطَارِهَا ، فَتَمَّ الْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ
هَيَاكِلِهِ .

أَلَا تَرَى إِلَى مَصَانِعِ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ ، وَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ عَنْهُمَا ؟ وَانْظُرْ
بِالْمُشَاهِدَةِ لِيُؤَانَ كِسْرَى ، وَمَا اقْتَدَرَ فِيهِ الْقُرْسُ ، حَتَّى أَنَّهُ [لَمَّا]^(١) عَزَمَ
الرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَتَخْرِيبِهِ ، فَتَكَاهَدَ^(٢) عَنْهُ وَشَرَعَ فِيهِ ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْعَجْزُ .
وَقِصَّةُ اسْتِشَارَتِهِ لِيَحْيَى ابْنِ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ . فَلِئِنْظُرْ كَيْفَ تَقْتَدِرُ
دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءِ لَا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى هَدْمَهُ - مَعَ بَوْنِ مَا بَيْنَ الْهَدْمِ وَالْبِنَاءِ فِي
السُّهُولَةِ - تَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ .

وَانْظُرْ إِلَى بِلَاطِ الْوَلِيدِ يَدْمَشَقَ ، وَجَامِعِ بَنِي أُمَيَّةٍ بِقَرْطَبَةَ ، وَالْقَنْطَرَةَ
الَّتِي عَلَى وَادِيهَا ، وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْحَتَايَا لَجَلْبِ الْمَاءِ إِلَى قَرْطَاجَتِهِ فِي الْقَنَاءِ
الرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا ، وَآثَارِ شَرْشَالٍ بِالْمَغْرِبِ ، وَالْأَهْرَامِ بِمِصْرَ ؛ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ
الْآثَارِ الْمَائِلَةِ لِلْعِيَانِ ، يُعَلِّمُ مِنْهُ اخْتِلَافَ الدُّوَلِ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الْأَفْعَالَ لِلْأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِالْهَنْدَامِ^(٣) وَاجْتِمَاعِ الْفَعْلَةِ

(١) زيادة زادها الدكتور وافي في منشورته لأن السياق يقتضيها .

(٢) أعجزه وشق عليه .

(٣) النظام وإعمال العقل وحسن الإطارة .

وَكَثْرَةِ الْأَيْدِي عَلَيْهَا ، فَبِذَلِكَ شَهِدَتْ تِلْكَ الْهَيَاكِلُ وَالْمَصَانِعُ . وَلَا تَتَوَهَّمُ
مَا تَتَوَهَّمُ الْعَامَّةُ أَنَّ ذَلِكَ لِعَظَمِ أَجْسَامِ الْأَقْدَمِينَ عَنْ أَجْسَامِنَا فِي أَطْرَافِهَا
وَأَقْطَارِهَا ؛ فَلَيْسَ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي ذَلِكَ كَيْسَرٌ بَوْنٌ . كَمَا نَجِدُ بَيْنَ الْهَيَاكِلِ
وَالْآثَارِ .

وَلَقَدْ وَكِعَ الْقُصَاصُ بِذَلِكَ وَتَغَالَوْا فِيهِ ؛ وَسَطَرُوا عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ
وَالْعَمَالِقَةَ فِي ذَلِكَ أَخْبَارًا عَرِيقَةً فِي الْكُذْبِ ، مِنْ أَغْرِبِهَا مَا يَحْكُونُ عَنْ
عُوجِ ابْنِ عِنَاقٍ^(١) رَجُلٍ مِنَ الْعَمَالِقَةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الشَّامِ ،
رَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لَطُولِهِ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ الْبَسْحَرِ ، وَيَشْوِيهِ إِلَى الشَّمْسِ .
وَيَزِيدُونَهُ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ الْبَشَرِ ، الْجَهْلُ بِأَحْوَالِ الْكَوَاكِبِ ، لِمَا
اعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً^(٢) ، وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قَرُبَ مِنْهَا ، وَلَا يَعْلَمُونَ
أَنَّ الْحَرَّ هُوَ الضَّوُّ ، وَأَنَّ الضَّوَّ فِيمَا قَرُبَ مِنَ الْأَرْضِ أَكْثَرُ ، لِانْتِكَاسِ
الْأَشِعَّةِ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ ، بِمُقَابَلَةِ الْأَضْوَاءِ ، فَتَضَاعَفُ الْحَرَارَةُ هُنَا
لَأَجْلِ ذَلِكَ ، وَإِذَا تَجَاوَزَتْ مَطَارِحَ الْأَشِعَّةِ الْمُتَعَكِّسَةِ ، فَلَا حَرَ هُنَاكَ ،

(١) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب الجسيم عوج بن عوف بالواو والمشهور على
السنه الناس : عتي بالنون .

(٢) ما يلحظ إليه يناقض ما يجمع العلماء عليه من وجود حرارة هائلة في الشمس نفسها
أما تقريره عن تناقص درجات الحرارة بالارتفاع عن سطح الأرض فصحيح .

بَلْ يَكُونُ فِيهِ الْبَرْدُ ، حَيْثُ مَجَارَى السَّحَابِ وَأَنَّ الشَّمْسَ فِي نَفْسِهَا لَأَحَارَةٌ
وَلَا بَارِدَةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ جِسْمٌ بَسِيطٌ مُضِيٌّ ، لَأَمِزَاجَ لَهُ .

وَكَذَلِكَ عَوْجُ بَنِ عِنَاقٍ ، هُوَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ ، أَوْ مِنَ
الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا فَرِيسَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ فَتْحِهِمُ الشَّامَ ، وَأَطْوَالُ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَجَسْمَانُهُمْ لِلذِّكْرِ الْعَهْدِ قَرِيبَةٌ مِنْ هَيَاكِلِنَا . يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَبْوَابُ
بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؛ فَإِنَّهَا وَإِنْ خُرِبَتْ وَجُدِّدَتْ لَمْ تَزَلِ الْمُحَافَظَةُ عَلَى أَشْكَالِهَا
وَمَقَادِيرِ أَبْوَابِهَا ، وَكَيْفَ يَكُونُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ عَوْجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بِهَذَا
الْمَقْدَارِ . وَإِنَّمَا مَثَارُ غَلَطِهِمْ فِي هَذَا أَنَّهُمْ اسْتَعْظَمُوا آثَارَ الْأُمَمِ ، وَلَمْ
يَفْهَمُوا حَالَ الدُّوْكِ فِي الْجَمَاعِ وَالْتِعَاوُنِ ، وَمَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ وَبِالْهِنْدَامِ
مِنَ الْأَثَارِ الْعَظِيمَةِ ، فَصَرَفُوهُ إِلَى قُوَّةِ الْأَجْسَامِ وَشِدَّتِهَا بِعَظَمِ هَيَاكِلِهَا ،
وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ .

وَقَدْ رَعِمَ الْمَسْعُودِيُّ - وَتَقَلَّهُ عَنِ الْفَلَاسِفَةِ - مَزْعَمًا لَأَمْسْتَدَّ لَهُ إِلَّا
التَّحْكُمُ ، وَهُوَ : أَنَّ الطَّبِيعَةَ الَّتِي هِيَ جِبِلَّةٌ لِلْأَجْسَامِ ، لَمَّا بَرَأَ اللَّهُ
الْخَلْقَ ، كَانَتْ فِي تَمَامِ الْمِرَّةِ^(١) ، وَنَهَايَةِ الْقُوَّةِ وَالْكَمَالِ ، وَكَانَتْ الْأَعْمَارُ
أَطْوَلَ ، وَالْأَجْسَامُ أَقْوَى ، لِكَمَالِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ ؛ فَإِنَّ طُرُوءَ الْمَوْتِ إِنَّمَا
هُوَ بَانِحِلَالِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ . فَإِذَا كَانَتْ قُوَّةٌ ، كَانَتْ الْأَعْمَارُ أَرِيدَ ،

(١) القوة ، ومثانة التكوين .

فَكَانَ الْعَالَمُ فَسَى أَوَّلِيَّةِ نَشَاتِهِ تَأَمُّ الْأَعْمَارِ ، كَامِلِ الْأَجْسَامِ . ثُمَّ لَمْ يَزَلْ
يَتَنَاقَصُ لِنَقْصَانِ الْمَادَّةِ ، إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا . ثُمَّ
لَا يَزَالُ يَتَنَاقَصُ إِلَى وَقْتِ الانْحِلَالِ وَانْفِرَاضِ الْعَالَمِ .

وَهَذَا رَأَى لِأَوَجَهٍ لَهُ إِلَّا التَّحَكُّمُ كَمَا تَرَاهُ . وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ ،
وَلَا سَبَبٌ بَرَهَانِيٌّ ، وَنَحْنُ نُشَاهِدُ مَسَاكِينَ الْأَوَّلِينَ وَأَبْوَابَهُمْ وَطَرَفَهُمْ فِيمَا
أَحْدَثُوهُ مِنَ الْبَنِيَانِ وَالْهَيَاكِلِ وَالْدِّيَارِ وَالْمَسَاكِينِ ، كَدِيَارِ ثَمُودَ الْمُنْحَوْتَةِ فِي
الصَّلْدِ مِنَ الصَّخْرِ بَيُوتًا صِغَارًا ، وَأَبْوَابَهَا ضَيِّقَةً . وَقَدْ أَشَارَ ﷺ إِلَى أَنَّهَا
دِيَارُهُمْ ، وَتَهَى عَنِ اسْتِعْمَالِ مِيَاهِهِمْ ، وَطَرَحَ مَا عُمِنَ بِهِ ، وَأَهْرَقَهُ (١) ،
وَقَالَ : « لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ
يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » . وَكَذَلِكَ أَرْضُ عَادٍ وَمِصْرَ ، وَالشَّامُ ، وَسَائِرُ بَقَاعِ
الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا . وَالْحَقُّ مَا قَرَرْنَاهُ .

وَمِنْ آثَارِ الدُّوَلِ أَيْضًا : حَالُهَا فِي الْأَعْرَاسِ وَالْوَلَايِمِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ
فِي وَكِيمَةِ بُورَانَ (٢) ، وَصَنِيعِ الْحَجَّاجِ ، وَابْنِ ذِي النُّونِ ، وَقَدْ مَرَّ ذَلِكَ
كُلُّهُ .

وَمِنْ آثَارِهَا أَيْضًا : عَطَايَا الدُّوَلِ ، وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا ، وَيُظْهَرُ
ذَلِكَ فِيهَا وَلَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى الْهَرَمِ ، فَإِنَّ الْهَيْمَةَ الَّتِي لِأَهْلِ الدُّوَلَةِ ، تَكُونُ

(١) صبه وأراقه .

(٢) بنت الحسن عند رفاقها إلى المأمون .

عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ وَعَلَيْهِمْ لِلنَّاسِ ، وَالْهَيْمَمُ لَا تَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى
 انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِجَوَائِزِ ابْنِ ذِي يَزَانَ لَوْفِدِ قُرَيْشٍ ، كَيْفَ
 أَعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَعْبِدِ^(١) وَالْوَصَائِفِ عَشْرًا عَشْرًا ،
 وَمِنْ كَرِشِ الْعَنْبَرِ وَاحِدَةً ، وَأَضْعَفَ ذَلِكَ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهِ لِعَبْدِ الْمُطَّلَبِ ،
 وَإِنَّمَا مُلْكُهُ يَوْمَئِذٍ قَرَارَةٌ الْيَمَنِ خَاصَّةٌ تَحْتَ اسْتِدَادِ فَارِسَ ، وَإِنَّمَا حَمَلُهُ
 عَلَى هِمَّةٍ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ التَّبَاعَةِ مِنَ الْمَلِكِ فِي الْأَرْضِ وَالْغَلْبِ عَلَى
 الْأُسْمِ فِي الْمَرَاقِينِ وَالْهِنْدِ وَالْمَغْرِبِ .

وَكَانَ الصَّنَهَاجِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ أَيْضًا إِذَا أَجَارُوا الْوَفْدَ مِنْ أَمْرَاهِ رَتَانَةً
 الْوَفَادِينَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّمَا يُعْطَوْنَهُمُ الْمَالَ أَحْمَالًا ، وَالنِّكَسَاءَ تَخُونًا^(٢) مَمْلُوءَةً
 وَالْحُمْلَانَ نَجَائِبَ^(٣) عَدِيدَةً . وَفِي تَارِيخِ ابْنِ الرَّفِيقِ مِنْ ذَلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ .
 وَكَذَلِكَ كَانَ عَطَاءُ الْبَرَامِكَةِ ، وَجَوَائِزُهُمْ وَنَفَقَاتُهُمْ . وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا
 مُعْدَمًا ، فَإِنَّمَا هُوَ الْوَلَايَةُ وَالنَّعْمَةُ آخِرَ الدَّهْرِ لَا الْعَطَاءُ الَّذِي يَسْتَنْفِذُهُ يَوْمٌ أَوْ
 بَعْضُ يَوْمٍ . وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مَسْطُورَةٌ ، وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نِسْبَةِ
 الدُّوَلِ جَارِيَةٌ .

(١) العبد : والوصاف جمع وصيفة وهي الجارية تؤهلها ميزاتها لمصاحبة عقيلات الملوك
 والخيمة في بيوت ذوى الجاه واليسار .

(٢) التخون جمع تخت وهو ما تصان فيه الثياب من أوعية أو صناديق .

(٣) في جميع النسخ « والحملات جنائب » وما أثبتناه عن منشورة د . والى . ج ٢
 هامش ص ٦٦٩ .

هَذَا جَوْهَرُ الصِّقْلَى الْكَاتِبُ ، قَائِدُ جَيْشِ الْعَبِيدِيِّينَ لَمَّا ارْتَحَلَ إِلَى
 فَتَحَ مِصْرَ ، اسْتَعَدَّ مِنَ الْقَيْرَوَانِ بِأَلْفِ حِمْلِ مِنَ الْمَالِ ، وَلَا تَنْتَهَى الْيَوْمَ
 دَوْلَةُ إِلَى مِثْلِ هَذَا . وَكَذَلِكَ وَجِدَ بِخَطِّ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ
 عَمَلٌ بِمَا يُحْمَلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ بِبَغْدَادَ ، أَيَّامَ الْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي ،
 نَقَلْتُهُ مِنْ جَرَابِ الدَّوْلَةِ .

(غُلَاتُ السَّوَادِ) سَبْعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَثَمَانِمِائَةُ
 أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْحُلَلِ السَّجْرَانِيَّةِ^(١) مِائَتَا حُلَّةٍ ، وَمِنْ طِينِ الْخُثْمِ مِائَتَانِ
 وَأَرْبَعُونَ رِطْلًا .

(كِفْكِرٌ^(٢)) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِثْمِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

(كوردجلة) عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَةُ دَرَاهِمٍ .

(حُلْوَانِ) أَرْبَعَةُ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَثَمَانِمِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

(الْأَهْوَارِ) خَمْسَةُ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً ، وَمِنْ السُّكَّرِ ثَلَاثُونَ
 أَلْفَ رِطْلًا .

(١) نسبة إلى : لجران . اسم بلد كانت تعرف بتجويد صناعة النسيج .

(٢) في القاموس : كنتكور بلد بين هملان وقرمسين .

(فارس) سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَمِنْ مَاءِ الْوَرْدِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَارُورَةٍ ، وَمِنْ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ .

(كَرْمَان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِائَتَا أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَمِنْ الْمَتَاعِ الْيَمَانِيِّ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ ، وَمِنْ التَّمْرِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ .

(مَكْران) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّةً .

(السُّنْدُ وَمَا يَلِيهِ) أَحَدُ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَخَمْسُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَمِنْ الْعُودِ الْهِنْدِيِّ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ رِطْلًا .

(سِجِسْتَان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ الثِّيَابِ الْمُعَيَّنَةِ ثَلَاثُمِائَةِ ثَوْبٍ ، وَمِنْ الْفَانِيزِ^(١) عِشْرُونَ رِطْلًا .

(خُرَاسَان) ثَمَانِيَّةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ نَقْرِ الْفِضَّةِ أَلْفًا نَقْرَةً ، وَمِنْ الْبَرَادِيزِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ، وَمِنْ الرِّقِيِّ أَلْفُ رَأْسٍ ، وَمِنْ الْمَتَاعِ عِشْرُونَ أَلْفَ ثَوْبٍ ، وَمِنْ الْإِهْلِيلِجِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ .

(جَرْجَان) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ الْإِبْرِيسِمِ^(٢) أَلْفُ شُقَّةٍ .

(١) ضرب من الحلوى .

(٢) الحرير .

(قَوْمَس) أَلْفَ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةٍ مِنْ نَقَرِ الْفَضَّةِ .

(طبرستان والربان ونهاوند) سِتَّةُ أَلْفٍ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ،
وَتَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ ، وَمِنْ الْفَرَشِ الطَّبَرِيِّ سِتْمِائَةِ قِطْعَةٍ ، وَمِنْ الْأَكْسِيَةِ
مِائَتَانِ ، وَمِنْ الشَّيَابِ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ ، وَمِنْ الْمَتَادِيْلِ ثَلَاثُمِائَةِ ، وَمِنْ
الْحِجَامَاتِ ثَلَاثُمِائَةِ .

(السُّرَى) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ الْعَسَلِ عِشْرُونَ
أَلْفَ رِطْلٍ .

(هَمْدَان) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَتَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ ،
وَمِنْ رُبِّ الرُّمَانِ أَلْفُ رِطْلٍ ، وَمِنْ الْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ .
(مَا بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ) عَشْرَةُ أَلْفٍ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ
أَلْفٍ دِرْهَمٍ .

(مَا سِوَالِ الْدِينَارِ)^(١) أَرْبَعَةُ أَلْفٍ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ .

(شَهْرُ زَوْر) سِتَّةُ أَلْفٍ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ .

(١) علق الهورينى بقوله : والدِّينَارُ والظَّاهِرُ أَنَّهَا الدِّينُورُ . وفى الترجمة التركية ما سند ان
وربان اه .

(الموصل وما يليها) أَرْبَعَةُ عَشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ
الْعَسَلِ الْإِيضِ عَشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ رِطْلٍ .

(أذربيجان) أَرْبَعَةُ أَلْفِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ .

(الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أَرْبَعَةُ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ أَلْفٍ
دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ الرِّقِيِّ أَلْفُ رَأْسٍ ، وَمِنْ الْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رِقٍّ ،
وَمِنْ الْبَزَاةِ^(١) عَشْرَةُ وَمِنْ الْأَكْسِيَةِ عَشْرُونَ .

(أرمينية) ثَلَاثَةُ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ الْقُسْطِ^(٢)
الْمَحْفُورِ عَشْرُونَ ، وَمِنْ الزَّرْقَمِ خَمْسُمِائَةَ وَثَلَاثُونَ رِطْلًا ، وَمِنْ الْمَسَايِجِ
السُّورِ مَا هِيَ ، عَشْرَةُ أَلْفِ رِطْلٍ ، وَمِنْ الصُّونِجِ عَشْرَةُ أَلْفِ رِطْلٍ ، وَمِنْ
الْبَغَالِ مِائَتَانِ ، وَمِنْ الْمُهْرَةِ ثَلَاثُونَ .

(قنسرين) أَرْبَعُمِائَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ ، وَمِنْ الزَّيْتِ أَلْفُ حِمْلٍ .

(دمشق) أَرْبَعُمِائَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ وَعَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

(الاردن) سَبْعَةُ وَتِسْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

(١) علق الهوريني بقوله : ومن البزاة ... إلخ في الترجمة التركية : ومن السكر عشرة
صناديق اهـ .

(٢) القسط : عود هندي وعربي يتلاوى به .

(فلسطين) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ وَعَشْرَةُ أَلْفٍ دِينَارٍ ، وَمِنْ الزَّيْتِ
ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ رِطْلٍ .

(مصر) أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ وَتِسْعُمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

(بركة) أَلْفُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ .

(افريقية) ثَلَاثَةُ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الْبُسْطِ ^(١) مِائَةُ
وَعِشْرُونَ .

(اليمن) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ سِوَى الْمَتَاعِ .

(الحجاز) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ انْتَهَى .

وَأَمَّا الْأَنْدَلُسُ : فَالَّذِي ذَكَرَهُ الثَّقَاتُ مِنْ مُوَرِّخَيْهَا ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ
النَّاصِرَ ، خَلَّفَ فِي بُيُوتِ أَمْوَالِهِ خَمْسَةَ أَلْفِ أَلْفٍ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً ثَلَاثَ
مَرَّاتٍ ، تَكُونُ جُمْلَتُهَا بِالْقَنَاطِيرِ خَمْسُمِائَةِ أَلْفٍ قَنْطَارٍ . وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ
تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ : أَنَّ الْمَحْمُولَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فِي أَيَّامِهِ ، سَبْعَةُ أَلْفِ
قَنْطَارٍ ؛ وَخَمْسُمِائَةِ قَنْطَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ .

فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي نَسَبِ الدَّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَلَا تُنْكِرَنَّ مَا لَيْسَ
بِمَعْهُودٍ عِنْدَكَ وَلَا فِي عَصْرِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْثَالِهِ ، فَتَضَيِّقَ حَوْصَلَتَكَ عِنْدَ

(١) جمع بساط ، ويروى « القسط » كما تقدم .

مُلْتَقَطِ الْمُمَكِّنَاتِ . فَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِّ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ عَنْ
الدُّوَلِ السَّالِفَةِ بَادَرُوا بِالْإِنْكَارِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الصَّوَابِ ، فَإِنَّ أَحْوَالَ
الْوُجُودِ وَالْعُمُرَانِ مُتَفَاوِتَةٌ ، وَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهَا رُبَّةَ سُقْلَى أَوْ وَسْطَى ، فَلَا
يَحْضُرُ الْمَدَارِكَ كُلَّهَا فِيهَا .

وَنَحْنُ إِذَا اعْتَبَرْنَا مَا يَنْقُلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَبَنِي أُمَيَّةَ ،
وَالْعُبَيْدِيِّينَ ، وَنَاسَبْنَا الصَّحِيحَ مِنْ ذَلِكَ ، وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ بِالَّذِي نُشَاهِدُهُ
مِنْ هَذِهِ الدُّوَلِ الَّتِي هِيَ أَقَلُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وَجَدْنَا بَيْنَهَا بَوْنًا ، وَهُوَ لِمَا بَيْنَهَا
مِنَ التَّفَاوُتِ فِي أَصْلِ قُوَّتِهَا وَعُمُرَانِ مَمَالِكِهَا ، فَلَا تَأْثُرُ كُلُّهَا جَارِيَةً عَلَى نِسْبَةِ
الْأَصْلِ فِي الْقُوَّةِ كَمَا قَدَّمْنَا ، وَلَا يَسَعُنَا إِنْكَارُ ذَلِكَ عَنْهَا ، إِذْ كَثِيرٌ مِنْ
هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي غَايَةِ الشُّهُرَةِ وَالْوُضُوحِ ، بَلْ فِيهَا مَا يُلْحَقُ بِالْمُسْتَضِيعِ
وَالْمُتَوَاتِرِ ، وَفِيهَا الْمَعَايِنُ وَالْمُشَاهِدُ مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَغَيْرِهِ ، فَخُذْ مِنْ
الْأَحْوَالِ الْمَنْقُولَةِ مَرَاتِبَ الدُّوَلِ فِي قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا وَضَخَامَتِهَا أَوْ صِغَرِهَا .

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الْمُسْتَظَرَّةِ : وَذَلِكَ أَنَّهُ
وَرَدَ بِالْمَغْرِبِ لِمَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرْينَ رَجُلٌ مِنْ
مَشِيخَةِ طَنْجَةَ يُعْرَفُ بِأَبْنِ بَطُوطَةَ^(١) كَانَ رَحْلًا مِنْدُ عِشْرِينَ سَنَةً قَبْلَهَا إِلَى
الْمَشْرِقِ ، وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادِ الْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ وَالْهِنْدِ ، وَدَخَلَ مَدِينَةَ دِهْلِي

(١) علق الهوريني بقوله : كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانهائها سنة ٧٥٤ وهي
عجبية ومختصرها ٧ كرايس اهـ .

حاضرة ملك الهند ، وهو السلطان محمد شاه ، واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء ، يذهب المالكية في عمله ، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عتبان ، وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من العجائب بممالك الأرض . وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون ، مثل : أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان ، وفرض لهم رزق ستة أشهر ، تدفع لهم من عطائه ، وأنه عند رجوعه من سفره ، يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ، يطوفون به ، وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات^(١) على الظهر ، ترمى بها سكانه الدراهم والدنانير على الناس ، إلى أن يدخل إيوانه . وأمثال هذه الحكايات فتتاجى الناس بتكذيبه . ولقيت أياً منذ وزير السلطان فارس بن ودار البعيد الصيت ، فقأوضته في هذا الشأن ، وأرته . إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه ، فقال لي الوزير فارس : إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول ، بما أنك لم تره ، فتكون كآبئ الوزير الناشيء في السجن . وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث

(١) هي في الأصل آلة حرية تستخدم كالدافع في قذف العدو . واستخدمت هنا في رمي الدراهم والدنانير .

فى السَّحْنِ سِتِينَ رَيْيَ فِيهَا ابْنُهُ فِى ذَلِكَ الْمَحْسِ . فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ ،
سَأَلَ عَنِ اللَّحْمَانِ الَّتِي كَانَ يَتَغَذَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هَذَا لَحْمُ الْغَنَمِ .
فَقَالَ . وَمَا الْغَنَمُ ؟ فَيَصِفُهَا لَهُ أَبُوهُ بِشَيَاتِهَا وَنُتُوتِهَا ؛ فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا
مِثْلَ الْفَارِ ، فَيَنْكُرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ : أَيْنَ الْغَنَمُ مِنَ الْفَارِ ؟ وَكَذَا فِى لَحْمِ الْإِبِلِ
وَالْبَقَرِ ، إِذْ لَمْ يُعَايِنِ فِى مَحْسِيهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ إِلَّا الْفَارَ ، فَيَحْسِبُهَا كُلَّهَا
أَبْنَاءَ جِنْسِ الْفَارِ ، وَهَذَا كَثِيرًا مَا يَعْتَرِي النَّاسَ فِى الْأَخْبَارِ كَمَا يَعْتَرِيهِمْ
الْوَسْوَاسُ فِى الزِّيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ الْإِغْرَابِ كَمَا قَدَّمَآهُ أَوَّلَ الْكِتَابِ .

فَلْيَرْجِعِ الْإِنْسَانُ إِلَى أَصُولِهِ . وَلْيَكُنْ مُهَيِّمًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَمُمَيِّزًا بَيْنَ
طَبِيعَةِ الْمُمَكِّنِ وَالْمُتَمَتِّعِ بِصَرِيحِ عَقْلِهِ ، وَمُسْتَقِيمِ فِطْرَتِهِ ؛ فَمَا دَخَلَ فِى
نِطَاقِ الْإِمْكَانِ قَبْلَهُ ، وَمَا خَرَجَ عَنْهُ رَفَضُهُ ، وَلَيْسَ مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ الْعَقْلِيَّ
الْمُطْلَقَ ، فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسَعُ شَيْءٍ ، فَلَا يُفْرَضُ حَدًّا بَيْنَ الْوَاقِعَاتِ ؛ وَإِنَّمَا
مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ بِحَسَبِ الْمَادَّةِ الَّتِي لِلشَّيْءِ ، فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ الشَّيْءِ
وَجَنَسَهُ وَصَنَفَهُ وَمَقْدَارَ عَظَمِهِ وَقُوَّتِهِ ، أَجْرَيْنَا الْحُكْمَ مِنْ نِسْبَةِ ذَلِكَ عَلَى
أَحْوَالِهِ ، وَحَكَمْنَا بِالِامْتِنَاعِ عَلَى مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ^(١) . ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي
عِلْمًا ۖ ﴾^(٢) وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) انظر : منشورة د. وافي ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٥٥ ففيها تفصيل هذه النظرية الهامة التي
قام على أساسها علم الاجتماع .

(٢) الآية رقم ١١٤ من سورة طه .

فصل

فى استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته بالموالى والمصطنعين

اعلم أن صاحب الدولة ، إنما يتم أمره كما قلناه بقومه ، فهم عصابته وظهراؤه على شأنه ، وبهم يُقَارِعُ الْخَوَارِجَ عَلَى دَوْلَتِهِ ، وَمِنْهُمْ يُقْلَدُ أَعْمَالَ مَمْلَكَتِهِ وَوِزَارَةَ دَوْلَتِهِ وَجَسَابَةَ أُمُورِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْوَانُهُ عَلَى الْقَلْبِ ، وَشُرَكَائِهِ فِي الْأَمْرِ ، وَمُسَاهِمُوهُ فِي سَائِرِ مُهِمَّاتِهِ . هَذَا مَا دَامَ الطُّورُ الْأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا^(١) .

فَإِذَا جَاءَ الطُّورُ السَّانِي ، وَظَهَرَ الاسْتِبْدَادُ عَنْهُمْ وَالانْفِرَادُ بِالْمَجْدِ ، وَدَافَعَهُمْ عَنْهُ بِالرَّاحِ ، صَارُوا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَاحْتِاجَ فِي مُدَافَعَتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ وَصَدَّتْ عَنْ الْمُشَارَكَةِ ، إِلَى أَوْلِيَاءَ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ ، فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ ، وَأَخْصَ بِهِ قُرْبًا وَاصْطِنَاعًا ، وَأَوَّلَى إِيْثَارًا وَجَاهًا ؛ لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مُدَافَعَةِ قَوْمِهِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ ، وَالرُّبَّةِ الَّتِي أَلْفَوْهَا فِي مُشَارَكَتِهِمْ ، فَيَسْتَخْلِصُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ ، وَيَخْصُمُهُمْ بِمَزِيدِ التَّكْرِمَةِ وَالْإِيْثَارِ ، وَيَقْسِمُ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَيُقْلَدُهُمْ جَلِيلَ

(١) انظر الفصل السابع عشر من هذا الباب وعنوانه : « فصل فى أطوار الدولة .. الخ » ص ١٥٧ .

الْأَعْمَالِ وَالْوِلَايَاتِ : مِنَ الْوِزَارَةِ ، وَالْقِيَادَةِ ، وَالنَّجَابَةِ ، وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ
لِنَفْسِهِ ، وَتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنَ الْقَابِ الْمَمْلُوكَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ حَيْثُ
أَوْلِيَاؤُهُ الْأَقْرَبُونَ ، وَنُصَحَاؤُهُ الْمُخْلِصُونَ . وَذَلِكَ حَيْثُ مُؤَذَّنٌ بِاهْتِضَامِ
الدَّوْلَةِ ، وَعَلَامَةٌ عَلَى الْمَرَضِ الْمُزْمِنِ فِيهَا لِفَسَادِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي كَانَ بِنَاءُ
الْقَلْبِ عَلَيْهَا ، وَمَرَضُ قُلُوبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ حَيْثُ مِنَ الْامْتِنَانِ ، وَعَدَاوَةِ
السُّلْطَانِ ، فَيَضْطَفُونَ^(١) عَلَيْهِ وَيَتَرَيُّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ ، وَيَعُودُ وَيَالُ ذَلِكَ
عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَلَا يَطْمَعُ فِي بَرِّئِهَا مِنْ هَذَا الدَّاءِ لِأَنَّ مَا مَضَى يَتَأَكَّدُ فِي
الْأَعْقَابِ إِلَى أَنْ يُلْهَبُ رُسْمُهَا .

واعتبر ذلك في دولة بني أمية ، كيف كانوا إنما يستظهرون في
حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب ، مثل عمر بن سعد بن أبي
وقاص ، وعبد الله بن زياد بن أبي سفيان والحجاج بن يوسف ، والمهلب
بن أبي صفرة ، وعالمد بن عبد الله القسري ، وابن هبيرة ، وموسى بن
نصير ، ويلاك بن أبي بردة بن موسى الأشعري ، ونصر بن سيار
وأمثالهم من رجال العرب . وكذا صدر من دولة بني العباس كان
الاستظهار فيها أيضا برجال العرب . فلما صارت الدولة للإنفراد
بالمجد ، وكبح العرب عن التطاول للولايات ، صارت الوزارة للعجم
والصنائع من البرامكة ، وبني سهل بن ثوبخت ، وبني طاهر ، ثم بني

(١) يحملون له الضئيلة والحقد .

بُؤْيَه ، وَمَوَالِي الشَّرِكِ مِثْلَ بَغَا ، وَوَصِيفٍ ، وَأَنَامِشٍ ، وَبَاكِتَاكَ ، وَأَبْنِ طُولُونَ ، وَأَبْنَائِهِمْ ، وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ ، فَتَكُونُ الدَّوْلَةُ لَغَيْرِ مَنْ مَهْدَهَا ، وَالْعِزُّ لَغَيْرِ مَنْ اجْتَلَبَهُ : سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

فصل

في أحوال الموالى والمصطنعين في الدول

إِعْلَمُ أَنَّ الْمُصْطَنَعِينَ فِي الدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ يَتَفَاوَتُ قَدِيمُهُمْ وَحَدِيثُهُمْ فِي الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُقْصُودَ فِي الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْمُدَافَعَةِ وَالْمُغَالَبَةِ ، إِنَّمَا يَتِمُّ بِالنَّسَبِ لِأَجْلِ التَّنَاصُرِ فِي ذَوِي الْأَرْحَامِ وَالْقُرْبَى ، وَالتَّخَاذُلِ فِي الْأَجَانِبِ وَالْبُعْدَاءِ كَمَا قَدَّمَاهُ . وَالْوِلَايَةُ وَالْمُخَالَطَةُ بِالرَّقْدِ أَوْ بِالْحَلْفِ تَنْتَزِلُ مَنَزِلَةَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا ، فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ ، وَالْمَعْنَى الَّذِي كَانَ بِهِ . الْإِلْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَطُولُ الْمُمَارَسَةِ وَالصَّحْبَةُ بِالْمَرْبِيِّ وَالرِّضَاعُ وَسَائِرُ أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ .

وَإِذَا حَصَلَ الْإِلْتِحَامُ بِذَلِكَ جَاءَتِ النُّعْرَةُ وَالتَّنَاصُرُ . وَهَذَا مُشَاهِدٌ بَيْنَ النَّاسِ . وَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي الْأَصْطِنَاعِ ، فَإِنَّهُ يُحْدِثُ بَيْنَ الْمُصْطَنَعِ وَمَنْ أَصْطَنَعَهُ ، نِسْبَةً خَاصَّةً مِنَ الْوَصِيلَةِ تَنْتَزِلُ هَذِهِ الْمَنَزِلَةَ وَتُؤَكِّدُ اللَّحْمَةَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ قَدَّمَاتُ النَّسَبِ مَوْجُودَةٌ .

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوِلَايَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ ، قَبْلَ حُصُولِ الْمُلْكِ لَهُمْ ، كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ ، وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ ، وَنَسَبُهَا أَصْرَحَ لَوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ الْمُلْكِ أَسْوَدُ فِي حَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنْ الْوِلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ الْأَقَلِّ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِي أَرْحَامِهِمْ . وَإِذَا اصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمُلْكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ الْمُلْكِ مُعِيزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلَى ، وَلَأَهْلِي الْقَرَابَةِ عَنْ أَهْلِ الْوِلَايَةِ وَالْإِصْطِنَاعِ لِمَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ الرِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ تَمَيُّزِ الرَّتَبِ وَتَفَاوُثِهَا فَتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ ، وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةً الْأَجَانِبِ وَيَكُونُ الْإِلْتِحَامُ بَيْنَهُمْ أضعْفَ ، وَالتَّنَاصُرُ لِذَلِكَ أَبْعَدَ ، وَذَلِكَ أَنْقَصَ مِنَ الْإِصْطِنَاعِ قَبْلَ الْمُلْكِ . الْوَجْهُ السَّانِي : أَنَّ الْإِصْطِنَاعَ قَبْلَ الْمُلْكِ يَبْعُدُ عَهْدَهُ عَنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطَوِيلِ الزَّمَانِ ، وَيَخْفَى شَأْنُ تِلْكَ اللَّحْمَةِ ، وَيُظَنُّ بِهَا فِي الْأَكْثَرِ النَّسَبُ فَيَقْوَى حَالُ الْعَصِيَّةِ .

وَأَمَّا بَعْدَ الْمُلْكِ فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِى مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ فَتَتَبَيَّنُ اللَّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ النَّسَبِ فَتَضَعُفُ الْعَصِيَّةُ بِالنَّسَبِ إِلَى الْوِلَايَةِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الدَّوْلَةِ .

وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ ، وَالرَّكَاسَاتِ تَجِدُهُ . فَكُلُّ مَنْ كَانَ إِصْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ الرِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ لِمُصْطَنِعِهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ الْإِلْتِحَامَ بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ ، وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةُ أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ . وَمَنْ كَانَ إِصْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمُلْكِ وَالرَّكَاسَةِ لِمُصْطَنِعِهِ ، لَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ وَاللَّحْمَةِ مَا

لِلأَوَّلِينَ . وَهَذَا مُشَاهِدٌ بِالْعَيَانِ ؛ حَتَّى إِنَّ الدَّوْلَةَ فِي آخِرِ عُمْرِهَا تَرْجِعُ
إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ وَاصْطِنَاعِهِمْ ، وَلَا يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ
الْمُصْطَنِعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ حَيْثُ تَدْبِرُ بِأَوَّلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَقَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى
الانْقِرَاضِ ، فَيَكُونُونَ مُنْهَكِينَ فِي مَهَارِي الضَّعَةِ .

وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَلَى اصْطِنَاعِهِمْ وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ
أَوَّلِيَّاتِهَا الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الْأَوَّلِينَ مَا يَحْتَرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعِزَّةِ عَلَى
صَاحِبِ الدَّوْلَةِ ، وَقِلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ
لِتَاكُثُرَ اللَّحْمَةُ مِنْهُ الْعُصُورِ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمَرَبِيِّ وَالِاتِّصَالِ بِآبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ
وَالِاتِّعَظَامِ مَعَ كِبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَيَحْصُلُ لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِزَازٌ
فِيَنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ سَوَاهِمُ ،
وَيَكُونُ عَهْدُ اسْتِخْلَاصِهِمْ وَاصْطِنَاعِهِمْ قَرِيبًا ، فَلَا يَبْلُغُونَ رَتَبَ الْمَجْدِ ،
وَيَقْفُونَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ .

وَهَكَذَا شَأْنُ الدُّوَلِ فِي أَوَاخِرِهَا . وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ
وَالْأَوَّلِيَّاتِ عَلَى الْأَوَّلِينَ . وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُحْدَثُونَ فَخُدَمٌ وَأَهْوَانٌ ، وَاللَّهُ وَكِيْلُ
الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

فصل

فيما يعرض في الدول من حيز السلطان والاستبداد عليه

إِذَا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ فِي نَصَابٍ مُعَيَّنٍ ، وَمَنِّتِ وَاحِدٌ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ
بِالدَّوْلَةِ ، وَأَنْفَرَدُوا بِهِ ، وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ ، وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِدًا
بَعْدَ وَاحِدٍ ، بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ ، فَرِيًّا حَدَثَ التَّغْلُبُ عَلَى الْمُنْتَصِبِ مِنْ
وُزَرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ . وَسَبَّهَ فِي الْأَكْثَرِ لِأَيَّةِ صَبِيٍّ صَغِيرٍ ، أَوْ مُضْعَفٍ
مِنْ أَهْلِ الْمَنِيَّةِ يَتَرَشَّحُ لِلْوَلَايَةِ بِعَهْدِ أَبِيهِ ، أَوْ يَتَرَشَّحُ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ ^(١)
وَيُؤْتَسُّ مِنْهُ الْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ قِيْقَوْمُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وَزَرَاءِ أَبِيهِ
وَحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ ، وَيُورَى ^(٢) بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْتَسَّ مِنْهُ
الْإِسْتِبْدَادُ ، وَيَجْعَلَ ذَلِكَ ذَرْبَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجُبُ الصَّبِيَّ عَنِ النَّاسِ ،
وَيَعُودُهُ اللَّذَاتِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا تَرْفُ أَحْوَالِهِ وَيُسِيمُهُ فِي مَرَامِيهَا مَتَى
أَمَكْنَهُ ، وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ . وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ
يَعْتَقِدُ أَنَّ حِظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ الرَّيْرِ ، وَإِعْطَاءُ الصَّفَقَةِ
وَحِطَابُ التَّهْوِيلِ ، وَالْقُعُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ وَأَنَّ الْحُلَّ وَالرِّبْطَ
وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَمِبَاسَرَةَ الْأَحْوَالِ الْمُلُوكِيَّةِ وَتَقْقُدَهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْحَيَاسِ
وَالْمَالِ وَالثَّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ ، وَيُسَلِّمُ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ

(١) الخدم من البطانة والحاشية .

(٢) يخفى أطماعه الاستبدادية وراه التظاهر بالمحافظة للمصبي على ملكه حتى يرشد .

الرئاسة والاستبداد ، ويحاول الملك إليه ، ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده . كما وقع لبنى بويه والترك وكافور الأخشيدي وغيرهم بالمشرق ، وللمنصور بن أبي عامر بالاندلس .

وقد يتفطن ذلك المحجور المغلب لشأنه فيحاول على الخروج من رتبة الحجر والاستبداد ويرجع الملك إلى نصايه ، ويضرب على أيدي المتغلبين عليه ، إما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط ؛ إلا أن ذلك في النادر الأقل ، لأن الدولة إذا أخذت في تغلب الوزراء والأولياء استمر لها ذلك وقل أن تخرج عنه ، لأن ذلك إنما يوجد في الأكثر عن أحوال السرف ، ونشأة أبناء الملك متغيبين في نعيمه ، قد نسوا عهد الرجولة ، والفوا أخلاق الدلايات والأطوار^(١) وربوا عليها ، فلا ينزعون إلى رئاسة ، ولا يعرفون استبداداً من تغلب . إنما همهم في القنوع بالأبهة ، والتفنن في اللذات وأنواع السرف . وهذا الضلّ يكون للموالى والمضطعين عند استبداد عشير الملك على قومهم ، وأنفرادهم به دونهم . وهو عارض للدولة ضروري كما قدمناه . وهذان مَرَضَان لا بُرَّ للدولة منهما إلا في الأقل النادر ، « والسُّلَةُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ »^(٢) ، وهو على كل شيء قدير .

(١) جمع ظئر ... وهي الرضعة .

(٢) الآية : ٢٤٧ من سورة البقرة .

فصل في حقيقة الملك واصنافه

الْمَلِكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ ؛ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمَكِّنُ
حَيَاتُهُمْ وَوُجُودُهُمْ إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَامُلِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوَّتِهِمْ
وَضَرُورِيَّاتِهِمْ . وَإِذَا اجْتَمَعُوا دَعَتْ الْضَرُورَةُ إِلَى الْمُعَامَلَةِ وَاقْتِضَاءِ
الْحَاجَاتِ ، وَمَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ بِأَخْذِهَا مِنْ صَاحِبِهِ ؛ لِمَا
فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلُمِ وَالْمُدُونِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيُمَانِعُهُ الْآخَرُ
عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْإِنْفَةِ ، وَمُقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فَسَى ذَلِكَ ، فَيَقَعُ
الْتِمَازُ الْمُفْضِي إِلَى الْمُقَاتَلَةِ ، وَهِيَ تَوْدِي إِلَى الْهَرَجِ ^(١) وَسَفْكَ الدِّمَاءِ ،
وِإِذْهَابِ النُّفُوسِ الْمُفْضِي ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النَّوْعِ ، وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِي
سُبْحَانَهُ بِالْمُحَافَظَةِ ، فَاسْتَحَالَ بِقَاوِمِهِمْ قُوَضَى دُونَ حَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ
بَعْضٍ ؛ وَاحْتِاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوَارِعِ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ
بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَلِكُ الْقَاهِرُ الْمُتَحَكِّمُ .

وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَصِيَّةِ ؛ لِمَا قَدْ مَتَّاهُ مِنْ أَنَّ الْمُطَالِبَاتِ كُلَّهَا
وَالْمُدَافَعَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ . وَهَذَا الْمَلِكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ
تَوَجَّهُ نَحْوَهُ الْمُطَالِبَاتُ ، وَيَحْتَاجُ إِلَى الْمُدَافَعَاتِ ؛ وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ

(١) الاضطرابات والفتن .

إِلَّا بِالْعَصِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصِيَّاتُ مُتَّفَاوِتَةٌ ، وَكُلُّ عَصِيَّةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ
وَتَغْلِبُ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرِهَا . وَلَيْسَ الْمَلِكُ لِكُلِّ عَصِيَّةٍ ؛
وَأِنَّمَا الْمَلِكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعِيدُ الرِّعْيَةَ ، وَيَجْبِي الْأَمْوَالَ ، وَيَبْعَثُ
الْبُعُوثَ وَيَحْمِي الثُّغُورَ ، وَلَا تَكُونُ قُوَّةُ يَدِهِ قَاهِرَةً ، وَهَذَا مَعْنَى الْمَلِكِ
وَحَقِيقَتُهُ فِي الْمَشْهُورِ .

فَمَنْ قَصَرَتْ بِهِ عَصِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلَ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جِبَايَةِ
الْأَمْوَالِ ، أَوْ بَعَثَ الْبُعُوثَ ، فَهُوَ مَلِكٌ نَاقِصٌ ، لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ . كَمَا
وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَرَبِرِ فِي دَوْلَةِ الْأَغَالِيَةِ بِالْقَيْرَوَانِ ، وَكِلْمُوكِ الْعَجَمِ
صَدَرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .

وَمَنْ قَصَرَتْ بِهِ عَصِيَّتُهُ أَيْضًا عَنِ اسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصِيَّاتِ
وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي ، وَكَانَ قُوَّةُ حُكْمِهِ غَيْرَهُ فَهُوَ أَيْضًا مَلِكٌ نَاقِصٌ
لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ . وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ أَمْرَاءِ السَّوَّاحِي وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ
تَجَمَّعَتْهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ . وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ هَذَا فِي الدَّوْلَةِ الْمَتْسِعَةِ النَّطَاقِ ،
أَعْنَى تَوْجُدِ مُلُوكٍ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي السَّوَّاحِي الْقَاصِيَةِ ، يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ
الَّتِي جَمَعَتْهُمْ مِثْلُ صَنْهَاجَةَ مَعَ الْعُبَيْدِيِّينَ ، وَزَنَاقَةَ مَعَ الْأُمَوِيِّينَ تَارَةً
وَالْعُبَيْدِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى ، وَمِثْلُ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَمِثْلُ
مُلُوكِ الطَّوَاتِفِ مِنَ الْفُرْسِ مَعَ الْأَسْكَانِدَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ . وَكَثِيرٌ مِنْ
هَؤُلَاءِ فَاعْتَبَرَهُ تَجِدُهُ وَاللَّهُ الْقَاهِرُ قُوَّةَ عِبَادِهِ .

فصل

في معنى البيعة^(١)

اعْلَمُ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ . كَانَ الْمُبَايَعُ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ السُّنْطَةَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَنْتَارِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُطِيعُهُ فِيمَا يُكَلِّفُهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ^(٢) .

وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ ، جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ ، تَأْكِيدًا لِلْعَهْدِ ، فَاشْتَبَهَ ذَلِكَ فِعْلَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي . فَسُمِّيَ بَيْعَةً ، مَصْدَرٌ بَاعَ وَصَارَتْ الْبَيْعَةُ مُصَافَحَةً بِالْأَيْدِي . هَذَا مَدْلُولُهَا فِي عُرْفِ اللُّغَةِ وَمَعْنَاهُودِ الشَّرْعِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ فِي الْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ^(٣) وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ^(٤) وَحَيْثُمَا وَرَدَ هَذَا اللفظُ . وَمِنْهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ . وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ . كَانَ الْخُلَفَاءُ يَسْتَحْلِفُونَ عَلَى الْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ الْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذَلِكَ ، فَسُمِّيَ هَذَا الِاسْتِعَابُ أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ .

وَكَانَ الْإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ . وَكَهَذَا لَمَّا أَقْبَى مَالِكٌ ﷺ بِسُقُوطِ

(١) البيعة بفتح الموحدة . ولما بكسرها على وزن شيعه بسكون الياء فهي معبد النصاري .

(٢) يطيعه فيما يحب وفيما يكره .

(٣) هما بيعتان : الأولى في السنة الثانية عشرة من البعثة . والثانية في الثالثة عشرة .

(٤) وهي التي ذكرها القرآن الكريم : انظر سورة الفتح الآية رقم ١٨ .

يَمِينِ الْإِكْرَاهِ^(١) أَنْكَرَهَا الْوَلَاةُ عَلَيْهِ ، وَرَأَوْهَا قَسَادِحَةً فِي أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ ،
وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِحْنَةِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ الْمُلُوكِ الْكِسْرِيَّةِ ، مِنْ
تَقْبِيلِ الْأَرْضِ أَوْ الْيَدِ أَوْ الرَّجْلِ أَوْ الدَّلِيلِ ، أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الْبَيْعَةِ ، الَّتِي
هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ مَجَاوِزًا لِمَا كَانَ هَذَا الْخُضُوعُ فِي السَّجْدَةِ وَالْتِزَامُ
الْأَدَابِ مِنْ لَوَائِمِ الطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا ، وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً ،
وَأَسْتَغْنَى بِهَا عَنْ مُصَافَحَةِ أَهْلِ النَّاسِ ، الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي الْأَصْلِ لِمَا
فِي الْمُصَافَحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ السُّتُزْلِ وَالْإِنْتِزَالِ الْمُنَافِيَيْنِ لِلرَّقَاسَةِ وَصَوْنِ
الْمُنْتَصِبِ الْمُلُوكِيِّ ، إِلَّا فِي الْأَقْلُ ، مِمَّنْ يَقْصِدُ التَّوَاضُّعَ مِنَ الْمُلُوكِ ،
فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ . فَافْتَهَمَ مَعْنَى
الْبَيْعَةِ فِي الْعُرْفِ ، فَإِنَّهُ أَكِيدُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتَهُ ، لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ
سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ ، وَلَا تَكُونُ أَعْمَالُهُ عِبَادًا وَمَجَانًا ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِكَ
مَعَ الْمُلُوكِ . وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ .

(١) روى ابن جرير أن مالكا حينما قال له بعض من بايعوا للنصور إن في أعتاقنا بيعته ،
قال : لقد بايعتم مكرهين ، وليس على مستكره يمين ، ولقى بذلك من العنت ما رفع
ذكره وأعلى قدره (انظر تعليق د. وافي رقم ٦٥٣ ص ٧٢٠) .

فصل فى ولاية العهد

اعلمنا أننا قدمنا الكلام فى الإمامة ومشروعيتها ، لما فيها من المصلحة ، وأن حقيقتها للنظر فى مصالح الأمة لدينهم ودنياهم ، فهو وليهم والأمين عليهم ، ينظر لهم ذلك فى حياته ، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ، ويقيم لهم من يتولى أمورهم ، كما كان هو يتولاها ، ويتقنون بنظره لهم فى ذلك ، كما وثقوا به فيما قبل .

وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جواره وانعاقده . إذ وقع بعهد أبى بكر رضي الله عنه لعمر بمحض من الصحابة وأجاروه ، وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم ، وكذلك عهد عمر فى الشورى إلى الستة بقية ^(١) العشرة ، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ، ففوض بعضهم إلى بعض حتى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف ، فاجتهد وناظر المسلمين ، فوجدهم متفقين على عثمان وعلى علف ، فأقر عثمان بالبيعة على ذلك ، لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين فى كل ما يحد دون اجتهداه . فانهقد أمر عثمان لذلك ، وأوجبوا طاعته ، وأملأ من الصحابة حاضرون للأولى والثانية ، ولم ينكره أحد منهم . فدل على

(١) أى الذين كانوا باقين على قيد الحياة من العشرة المبشرين بالجنة .

أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ ، عَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ . وَالْإِجْمَاعُ حُجَّةٌ
كَمَا عُرِفَ .

وَلَا يَتَّهَمُ الْإِمَامُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، وَإِنْ عَاهَدَ أَبِيهِ أَوْ ابْنِهِ ، لِأَنَّهُ مَأْمُونٌ
عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ ، فَأَوَّلَى أَنْ لَا يَحْتَمِلَ فِيهَا تَبِعَةً بَعْدَ مَمَاتِهِ ،
خِلَافًا لِمَنْ قَالَ بِاتِّهَامِهِ فِي الْوَكْدِ وَالْوَالِدِ . أَوَّلِمَنْ خَصَّصَ التَّهْمَةَ بِالْوَكْدِ
دُونَ الْوَالِدِ ، فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الظَّنِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، لِأَسِمَاءٍ إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ
دَاعِيَةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ إِيثَارٍ مَصْلَحَةٍ أَوْ تَوْقِعِ مَقْسَدَةٍ . فَتَنْتَهِي الظَّنُّ فِي ذَلِكَ
رَأْسًا ، كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ مُعَاوِيَةَ لِابْنِهِ يَزِيدَ ؛ وَإِنْ كَانَ فِعْلُ مُعَاوِيَةَ مَعَ
وِفَاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةٌ فِي الْبَابِ . وَالَّذِي دَعَا مُعَاوِيَةَ لِإِيثَارِ ابْنِهِ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ
دُونَ مَنْ سِوَاهُ ، إِنَّمَا هُوَ مُرَاعَاةُ الْمَصْلَحَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ ، وَاتِّفَاقِ
أَهْوَائِهِمْ ، بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَنَى أُمِّيَّةً ، إِذْ بَسُو
أُمِّيَّةً يَوْمئِذٍ لَا يَرْضَوْنَ سِوَاهُمْ ، وَهُمْ عَصَابَةُ قُرَيْشٍ ، وَأَهْلُ الْمِلَّةِ أَجْمَعُ ،
وَأَهْلُ الْغَلَبِ مِنْهُمْ فَأَثَرُهُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ ، مِمَّنْ يُظَنُّ أَنَّهُ أَوَّلَى بِهَا ،
وَعَدَكَ عَنْ الْفَاضِلِ إِلَى الْمَقْضُولِ ، حِرْصًا عَلَى الْإِتِّفَاقِ وَاجْتِمَاعِ الْأَهْوَاءِ
الَّذِي شَأْنُهُ أَهَمُّ عِنْدَ الشَّارِعِ . وَإِنْ كَانَ لَا يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرَ هَذَا ، فَعَدَاكَ
وَصَحْبَتُهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوَى ذَلِكَ ، وَحُضُورُ أَكْبَرِ الصَّحَابَةِ لِلذَّكَاءِ وَسُكُوتُهُمْ
عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ الرَّيْبِ فِيهِ ، فَلْيَسُوا مِمَّنْ يَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِّ هَوَادَةٌ ،

وَلَيْسَ مُعَاوِيَةُ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ فَسَى قَبُولِ الْحَقِّ ، فَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ أَجَلٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَعَدَّائَتُهُمْ مَانِعَةٌ مِنْهُ .

وَفِرَارُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ مَبَاحًا كَانَ أَوْ مَحْظُورًا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ . وَلَمْ يَتَّقَ فِي الْمُخَالَفَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ إِلَّا ابْنَ الزُّبَيْرِ ، وَتَدَوَّرَ الْمُخَالَفَ مَعْرُوفٌ .

ثُمَّ أَنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ مُعَاوِيَةَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسُلَيْمَانَ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَالسَّمْنَانِجِي وَالْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ عَرِقتِ عَدَائَتِهِمْ ، وَحَسَنُ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرُ لَهُمْ .

وَلَا يُعَابُ عَلَيْهِمْ ، إِيشَارُ أَيْتَانِهِمْ وَإِخْوَانَتِهِمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سُنَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ ، فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أَوْلِيكَ الْخُلَفَاءِ . فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حَيْثُ لَمْ تَحُلْطْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَكَانَ الْوَارِعُ دِينِيًّا ، فَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَارِعٌ مِنْ نَفْسِهِ ، فَسَمِعُوا إِلَى مَنْ يَرْتَضِيهِ الدِّينُ فَقَطُّ ، وَاتَّزَوْهُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَوَكَّلُوا كُلُّ مَنْ يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَارِعِهِ .

وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ ، فَكَانَتِ الْعَصِيَّةُ قَدْ أَشْرَقَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ الْمَلِكِ وَالْوَارِعِ الدِّينِيِّ قَدْ ضَعُفَ ، وَاحْتَجَّ إِلَى الْوَارِعِ السُّلْطَانِيِّ

وَالْعَصْبَانِي . فَلَوْ عَهْدَ إِلَى غَيْرِ مَنْ تَرْتَضِيهِ الْعَصِيَّةُ لَرَدَّتْ ذَلِكَ الْعَهْدَ ،
وَانْتَقَصَ أَمْرُهُ سَرِيعًا ، وَصَارَتْ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالْاِخْتِلَافِ . سَأَلَ
رَجُلٌ عَلِيًّا عليه السلام ، مَا بَالُ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي
بَكْرٍ وَعُمَرَ ؟ فَقَالَ : لَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا وَالْبَيْنَ عَلَى مِنَالِي ، وَأَنَا الْيَوْمَ
وَالْأَمْسَ عَلَى مِثْلِكَ . يُشِيرُ إِلَى وَارِعِ الدِّينِ . أَفَلَا تَرَى إِلَى الْمَأْمُونِ ، لَمَّا
عَهْدَ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَسَمَاءُ الرُّضَا ، كَيْفَ انْكَرَتْ
الْعَبَاسِيَّةُ ذَلِكَ وَنَفَضُوا بَيْعَتَهُ ، وَبَايَعُوا لِعِمَّةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَدِيِّ ، وَظَهَرَ
مِنْ الْهَرَجِ وَالْخِلَافِ وَانْقِطَاعِ السَّبْلِ وَتَعَدُّدِ الثَّوَارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ
يَصْطَلِمَ ^(١) الْأَمْرَ ، حَتَّى بَادَرَ الْمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ ، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ
لِعِمَامَتِهِ . فَلَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِ ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ . فَالْعُصُورُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ
مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ ، وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ
الْمَصَالِحِ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يَخُصُّهُ ، لُطْفًا مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ .

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ التُّرَاثِ عَلَى الْإِبْنَاءِ . فَلَيْسَ مِنَ
الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ ، إِذْ هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ يَخُصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، يَنْبَغِي
أَنْ تُحَسِّنَ فِيهِ النِّيَّةَ مَا أَمْكَنَ ، خَوْفًا مِنَ الْعَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ السُّدِّيَّةِ .
وَالْمَلِكُ لِلَّهِ يُوْثِقُهُ مَنْ يَشَاءُ .

(١) يقطعهُ ويستأصلهُ .

وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو الضَّرُورَةَ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا :

فَالأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفَسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ . فَإِيَّاكَ أَنْ تَطُنَّ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدَ ، فَإِنَّهُ أَعَدَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَأَفْضَلَ . بَلْ كَانَ يَعْلَمُهُ ^(١) أَيَّامَ حَيَاتِهِ فَسَى سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَيَتَنَاهَا عَنْهُ ، وَهُوَ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً . وَلَمَّا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَّثَ مِنَ الْفَسْقِ ، اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ حَيْثُ فِي شَأْنِهِ : فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ ، وَتَقَضَّى بَيْعَتَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ الْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ ^(٢) لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْوَقَافِ بِهِ ، لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمئِذٍ هِيَ عِصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَتَسْتَبْعُ عَصِيَّةَ مُضَرَ أَجْمَعَ ، وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تَطَاقُ مُقَاوَمَتُهُمْ ، فَاقْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، وَأَقَامُوا عَلَى الدُّعَاءِ بِهَدَايَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ . وَهَذَا كَانَ شَأْنُ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ . وَالْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ وَلَا يُنْكِرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ . فَمَقَاصِلُهُمْ فِي الْبِرِّ وَتَحَرُّيِ الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ . وَفَقْنَا اللَّهَ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ .

(١) العلل : الملامة .

(٢) رفض فكرة الخروج عليه .

وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَمَا تَدْعِيهِ الشَّيْعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيِّ ﷺ ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِحْ ، وَلَا نَقَلَ أَحَدٌ مِنْ أئِمَّةِ السَّقَلِ .
وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ الْوَصِيَّةَ ، وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ فَدَكِلِيلٌ وَأَصِحُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ . وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ ﷺ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي الْعَهْدِ ، فَقَالَ : إِنْ أَعْهَدَ فَقَدْ عَهِدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي ، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ، وَإِنْ أَتْرَكَ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي ، يَعْنِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَعْهَدْ . وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيٍّ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَا لِلدَّخُولِ إِلَى السَّنِيِّ ﷺ بِأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فِي الْعَهْدِ : فَأَبَى عَلَى مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ : إِنَّهُ إِنْ مَنَعْنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوصِ وَلَا عَهِدَ إِلَى أَحَدٍ .

وَشَبْهُةُ الْإِمَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ ، إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ ، كَمَا يَزْعُمُونَ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمُقَوَّضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ . وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ ، لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ الصَّلَاةِ ، وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا ، كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ ، وَلَكَانَ يُشْتَهَرُ كَمَا اشْتَهَرَ أَمْرُ الصَّلَاةِ . وَاجْتِجَاعُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا عَلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِمْ ارْتَضَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِدِينِنَا أَفَلَا تَرْضَاهُ لِدِينَانَا؟ دَكِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ . وَيَبْدُلُ ذَلِكَ أَيْضًا . عَلَى أَنَّ أَمْرَ الْإِمَامَةِ وَالْعَهْدِ بِهَا لَمْ يَكُنْ مِثْلًا كَمَا هُوَ الْيَوْمَ ، وَشَأْنُ الْعَصِيَّةِ الْمُرَاعَاةِ فِي

الاجتماع والافتراق في مجارى العادة لم يكن يؤمّد بذلك الاعتبار ، لأنّ أمر الدين والإسلام كان كلّهُ بخوارق العادة من تكليف القلوب عليه ، واستماتة الناس دونه ، وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردّد خبر السماء بينهم ، وتجدّد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم ، فلم يُحتج إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والإذعان ، وما يستفهم من تتابع المعجزات الخارقة ، والأحوال الإلهية الواقعة ، والملائكة المترددة ، التي وجموا منها ، ودعشوا من تتابعها . فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه الأنواع مندرجاً في ذلك القليل كما وقع .

فلما انحصر ذلك الملدّد بدعاب تلك المعجزات ثمّ بقاء القرون الذين شاهدوها ، فاستحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً ، ودعبت الخوارق ، وصار الحكم للعادة كما كان . فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد ، وأصبح الملك والخلافة والعهد يهيماً مهيماً من المهمات الأكدية كما رعموا ، ولم يكن ذلك من قبل .

فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي ﷺ غير مهمة ، فلم يعهد فيها ، ثمّ تدرّجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء ، بما دعت الضرورة إليه ، في الحماية والجهاد وشأن الردّة والفتوحات ، فكانوا بالخيار في الفعل والترك ، كما ذكرناه عن عمر رضي الله عنه ، ثمّ صارت اليوم من أهم الأمور

لِلْأَلْفَةِ عَلَى الْحِمَايَةِ ، وَالْقِيَامَ بِالْمَصَالِحِ ، فَاعْتَبِرَتْ فِيهَا الْعَصِيَّةُ الَّتِي هِيَ
سِرُّ الْوَارِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ ، وَمَنْشَأُ الْجَمَاعِ وَالتَّوَاقُّفِ الْكَبِيرِ بِمَقَاصِدِ
الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا .

وَالْأَمْرُ الثَّالِثُ شَأْنُ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ
وَالْتَّابِعِينَ : فَاعْلَمْ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ ، وَيَنْشَأُ عَنِ
الاجْتِهَادِ فِي الْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَدَارِكِ الْمُتَعَبَّرَةِ . وَالْمُجْتَهِدُونَ إِذَا
اخْتَلَفُوا ، فَإِنَّ قُلْنَا : إِنَّ الْحَقَّ فِي الْمَسَائِلِ الْاجْتِهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرِيقَيْنِ ،
وَمَنْ لَمْ يُصَادِفْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ ، فَإِنَّ جِهَتَهُ لَا تَتَمَيَّنُ بِاجْتِمَاعِ ، فَيَقْبَى الْكُلُّ
عَلَى اجْتِمَاعِ الْإِصَابَةِ ، وَلَا يَتَمَيَّنُ الْمُخْطِئُ مِنْهُمْ ، وَالتَّائِبُ مَدْفُوعٌ عَنِ
الْكُلِّ إِجْمَاعًا ، وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ عَلَى حَقٍّ ، وَإِنْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ ،
فَأَحْرَى بِنَهْيِ الْخَطِئِ وَالتَّائِبِ . وَغَايَةُ الْخِلَافِ الَّذِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ
وَالْتَّابِعِينَ ، أَنَّهُ خِلَافٌ اجْتِهَادِيٌّ فِي مَسَائِلِ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ ، وَهَذَا حُكْمُهُ .

وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ إِنَّمَا هُوَ وَاقِعَةٌ عَلَى مَعَ مُعَاوِيَةَ ، وَمَعَ
الزُّبَيْرِ وَعَافِيَةَ وَطَلْحَةَ ، وَوَاقِعَةُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ ، وَوَاقِعَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ
عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلَى ، فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عَثْمَانَ مُفْتَرِقِينَ فِي
الْأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بَيْعَةَ عَلَى . وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ ، وَمِنْهُمْ

مَنْ تَوَقَّفَ ، حَتَّى يَجْتَمَعَ النَّاسُ ، وَيَتَّقُوا عَلَى إِمَامٍ كَسَعِدٍ وَسَعِيدِ وَابْنِ
عُمَرَ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَالْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَقُدَامَةَ ابْنِ
مَطْعُونٍ ، وَابْنَ سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ، وَكَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ ، وَكَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ،
وَالنُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ ، وَحَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ ، وَمَسْلَمَةَ بْنَ مَخْلَدٍ ، وَثُفَّالَةَ بْنَ
عَبِيدٍ ، وَأَمثالِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ ، وَالَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَمْصَارِ ، عَدَلُوا
عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضًا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ ، وَتَرَكُوا الْأَمْرَ قَوْصَى ، حَتَّى
يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُؤَلُّوهُ ، وَظَنُّوا بِعَلِيٍّ هَوَادَّةً فِي السُّكُوتِ
عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِيهِ ، لَا فِي الْمَمْلَاءِ عَلَيْهِ ، فَحَاشَ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَحَ بِمَلَامَتِهِ ، إِنَّمَا يُوجِّهُهَا عَلَيْهِ فَنَسِي سَكُونِهِ
فَقَطْ . ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ ، فَرَأَى عَلَى أَنْ يَبْعَثَهُ قَدْ انْعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ
تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعِ مَنْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَوْطِنِ
الصَّحَابَةِ ، وَأَرْجَأَ الْأَمْرَ فِي الْمُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ ، وَأَتَمَّقَ
الْكَلِمَةَ ، فَيَتِمَّكِنُ حَيْثُ مِنْ ذَلِكَ . وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنْ يَبْعَثَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ ،
لَا فِتْرَاتِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِالْأَفَاقِ ، وَلَمْ يَحْضُرْ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَلَا
تَكُونُ الْيَسْعَةُ إِلَّا بِاتِّمَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَلَا تُلْزِمُ بِعَقْدٍ مَنْ تَوَلَّاهَا مِنْ
غَيْرِهِمْ ، أَوْ مِنْ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ ، وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ قَوْصَى ، فَيُطَالِبُونَ
أَوَّلًا بِدَمِ عُثْمَانَ ، ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ ، وَدَعَبَ إِلَى هَذَا مُعَاوِيَةُ ،

وَعَمَرُو بْنِ الْعَاصِ وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ ، وَالزَّيْبُرُ وَابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَطَلْحَةُ وَابْنُهُ مُحَمَّدٌ ، وَسَعْدٌ ، وَسَعِيدٌ ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خَدِيجٍ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا . إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِمِ اتَّفَقُوا عَلَى انْتِقَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ ، وَلَزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ ، وَتَصْوِيبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ، وَتَعْيِينِ الْخَطَأِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ ، وَخُصُوصًا طَلْحَةَ وَالزَّيْبُرَ ، لِانْتِقَاضِهِمَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نَقَلَ مَعَ دَفْعِ السَّائِسِ عَنْ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، كَالشَّانِ فِي الْمُجْتَهِدِينَ ، وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي ، عَلَى أَحَدِ قَوْلِي أَهْلِ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .

وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَتْلِ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَفْسِي إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، يُشِيرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ ، نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ . فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عِدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا قَدَحٌ فَنَسَى شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، فَهُمْ مِنْ عِلْمَتِي ، وَأَقُولُ لَهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَدَاتِ ، وَعَدَالَتُهُمْ مَقْرُوءٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ ، إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِّلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا ، لَمْ يَلْتَمِثْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَلَا عَرَجَ عَلَيْهِ .

وَإِذَا نَظَرْتَ بَعَيْنِ الْإِنْصَافِ ، عَدَرْتَ السَّنَاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ

الْاِخْتِلَافُ فِي عِثْمَانَ ، وَاِخْتِلَافُ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدُ ، وَعَلِمَتْ أَنَّهَا كَانَتْ
فِتْنَةً ابْتَلَى اللَّهُ بِهَا الْأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْغَبَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ ، وَمَلَكَهُمْ
أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ، وَنَزَلُوا الْأَنْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ
وَمِصْرَ ، وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هَذِهِ الْأَنْصَارَ جَفَاءً لَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ
صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَا ارْتَاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ
الْجَفَاءِ وَالْعَصِيَّةِ وَالسَّفَاخِرِ وَالْبُعْدِ عَنْ مَسْكِنَةِ الْإِيمَانِ ، وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ
اسْتِحْضَالِ الدَّوْلَةِ ، قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلَكََةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ ،
وَكِنَانَةَ وَتَقِيفٍ وَهَذِيلٍ وَأَهْلِي الْحِجَارِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْإِيمَانِ ،
فَاسْتَنْكَفُوا مِنْ ذَلِكَ ، وَغَضُّوا بِهِ ، لِمَا يَرَوْنَ لَأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ
وَكَثَرَتِهِمْ ، وَمُضَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ ، مِثْلَ قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، وَعَبْدِ
الْقَيْسِ بْنِ رَيْعَةَ وَقَبَائِلِ كِنْدَةَ وَالْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ ، وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مِصْرَ ،
فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْفَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّشْرِيطِ فِي طَاعَتِهِمْ ،
وَالْتَعَلُّلِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ ، وَالْإِسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَالطَّعْنِ فِيهِمْ
بِالْعَجْزِ عَنِ السُّوْيَةِ ، وَالْعَدْلِ فِي الْقِسْمِ عَنِ السُّوْيَةِ ، وَقَسَتْ الْمَقَالَةُ
بِذَلِكَ ، وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمَتْ قَاعِظُمُوهُ ، وَأَهْلَقُوهُ عِثْمَانَ
فَبَعَثَ إِلَى الْأَنْصَارِ مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْغَيْبَ ، بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ
مَسْلَمَةَ ، وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَسْأَلَهُمْ ، فَلَمْ يَنْكُرُوا عَلَى الْأَمْرِ شَيْئًا ، وَلَا
رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَعْنًا ، وَأَدَّوْا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ الطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ

الأنصار وما زالت الشتاعات تنمو ، ودعى الوليد بن عتبة وهو على الكوفة يشرب الخمر ، وشهد عليه جماعة منهم ، وحده عثمان وعزله . ثم جاء إلى المدينة من أهل الأنصار يسألون عزل العمال وشكوا إلى عائشة وعلى والزبير وطلحة وعزل لهم عثمان بعض العمال ، فلم تقطع بذلك ألسنتهم بل وقد سعى بن العاصي وهو على الكوفة ، فلما رجع اعتزضوه بالطريق ، وردوه معزولا . ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ، وتقدموا عليه امتناعه من العزل ، فأبى إلا أن يكون على جرحه^(١) ، ثم نقلوا التكير إلى غير ذلك من أفعاله ، وهو متمسك بالاجتهاد ، وهم أيضا كذلك ، ثم تجمع قوم من الفوغاء ، وجاءوا إلى المدينة يظهرُونَ طلب النصفة من عثمان وهم يضيرون خلاف ذلك من قتله ، وفيهم من البصرة والكوفة ومصر ، وقام معهم في ذلك على عائشة والزبير وطلحة وغيرهم ، يحاولون تسكين الأمور ، ورجوع عثمان إلى رأيهم . وعزل لهم عامل مصر ، فأنصرفوا قليلا ثم رجعوا ، وقد لبسوا بكتاب ملئ يزعمون أنهم لقوه في يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم ، وحلف عثمان على ذلك ، فقالوا مكثنا من مروان فإنه كاتبك . فحلف مروان ، فقال : ليس في الحكم أكثر من هذا ، فحاصروه بداره ، ثم يئسوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وافتتح باب الفتنة .

(١) ما يجرح به ويسقط عدالته .

فَلِكُلِّ مِنْ هَؤُلَاءِ عَذْرٌ فِيمَا وَقَعَ ، وَكُلُّهُمْ كَانُوا مُهْتَمِينَ بِأَمْرِ الدِّينِ ،
وَلَا يُضَيِّعُونَ شَيْئًا مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ ، ثُمَّ نَظَرُوا بَعْدَ هَذَا الْوَاقِعِ وَاجْتَهَدُوا ، وَاللَّهُ
مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ ، وَعَالِمٌ بِهِمْ . وَنَحْنُ لَا نَظُنُّ بِهِمْ إِلَّا خَيْرًا ، لِمَا
شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ ، وَمَقَالَاتُ الصَّادِقِ .

وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فَسُقِيَ يَزِيدَ عِنْدَ الْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ ،
بَعَثَتْ شَيْعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ بِالْكَوْفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ ، فَرَأَى
الْحُسَيْنُ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ مُتَعَيْنٌ مِنْ أَجْلِ فَسَقِهِ ، لَا سِيَّمَا مِنْ لَهُ
الْقُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ ، وَظَنُّهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ وَشَوْكَتِهِ ، فَأَمَّا الْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ
كَمَا ظُنُّ وَرِيَادَةٌ . وَأَمَّا الشَّوْكَةُ فَغَلِطَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ فِيهَا ، لِأَنَّ عَصِيَّةَ مُضَرَّ
كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ ، وَعَصِيَّةَ عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ ، تَعْرِفُ ذَلِكَ
لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ ، وَلَا يُنْكِرُونَهُ . وَإِنَّمَا نُسِيَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ ، لِمَا
شَغَلَ النَّاسَ مِنَ السُّدُودِ بِالْخَوَارِقِ وَأَمْرِ الْوَحْيِ ، وَتَرَدَّدِ الْمَلَائِكَةِ لِنُصْرَةِ
الْمُسْلِمِينَ ، فَأَغْفَلُوا أُمُورَ عَوَالِدِهِمْ ، وَذَهَبَتْ عَصِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُهَا
وَنُسِيَتْ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَصِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي الْحِمَايَةِ وَالِدِفَاعِ ، يَنْتَفِعُ بِهَا
فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ ، وَالِدِّينِ فِيهَا مُحْكَمٌ ، وَالْعَادَةُ مَعزُودَةٌ ،
حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْخَوَارِقِ الْمَهْوَلَةِ ، تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضُ الشَّيْءِ
لِلْعَوَالِدِ فَعَادَتِ الْعَصِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَكَيْفَ كَانَتْ ، وَأَصْبَحَتْ مُضَرُّ أَطْوَعِ
لِبَنِي أُمَيَّةَ مِنْ سِوَاهُمْ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ .

فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ غَلَطُ الْحُسَيْنِ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي أَمْرِ دُنْيَوِيٍّ لَا يَضُرُّهُ الْغَلَطُ فِيهِ ، وَأَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَلَمْ يَخْلُطْ فِيهِ لِأَنَّهُ مُنَوِّطٌ بِظَنِّهِ ، وَكَانَ ظَنُّهُ الْقِلْدَةُ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَقَدْ عَذَّلَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الْحَنَفِيَّةِ أَخُوهُ وَغَيْرُهُ فِي مَسِيرِهِ إِلَى الْكُوفَةِ ، وَعَلِمُوا غَلَطَهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ ، لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ .

وَأَمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَارِ ، وَمَعَ يَزِيدَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، وَمِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ ، فَرَأَوْا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَجُوزُ ، لِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ ^(١) وَالِدَّمَاءِ ، فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَكَمْ يَتَابِعُوا الْحُسَيْنَ ، وَلَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ ، وَلَا أَنْمَوْهُ ، لِأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ ، وَهُوَ أَسْوَأُ الْمُجْتَهِدِينَ .

وَلَا يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنَّ تَقُولَ بِتَائِبِيٍّ هَؤُلَاءِ بِمُخَالَفَةِ الْحُسَيْنِ وَقُعُودِهِمْ عَنْ نَصْرِهِ ، فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَشْهَدُ بِهِمْ وَهُوَ بِكَرْبَلَاءَ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ ، وَيَقُولُ : سَلُّوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ . وَأَبَا سَعِيدَ الْخُدْرِيَّ وَأَسَّ بْنَ مَالِكٍ وَسَهْلَ بْنَ سَعِيدٍ وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمْثَلَهُمْ ، وَكَمْ يَنْكَرُ عَلَيْهِمْ قُعُودَهُمْ عَنْ نَصْرِهِ ، وَلَا تَعْرِضُ لِذَلِكَ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ عَنِ اجْتِهَادِ مَنْهُمْ ، كَمَا كَانَ فَعَلَهُ

(١) الفتنة والاضطراب .

عن اجتهاد منه . وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لا
كان عن اجتهاد وإن كان هو على اجتهاد، ويكون ذلك كما يحذ الشافعي^١
والمالكي الحنفى على شرب النبيذ^(١) .

وأعلم أن الأمر ليس كذلك ، وقيل لم يكن عن اجتهاد هؤلاء ،
وإن كان خلافه عن اجتهادهم ، وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه . ولا
تقولن إن يزيد وإن كان فاسقا ولم يجز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم
صحيحة . وأعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعا ، وقيل
البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل ، وهو مفقود فـ
مستلثا ، فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا يزيد بل هي من فعلاته
المؤكدة لنفسه ، والحسين فيها شهيد مثاب ، وهو على حق واجتهاد ،
والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضا واجتهاد .

وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه
الذي سماه « بالعواصم والقواصم » ما معناه : إن الحسين قتل بشرع
جده ، وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل ، ومن أعذك
من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء ؟

(١) أى كما يقيم القاضي الشافعي أو المالكي الحد على حنفى شرب النبيذ ، مع أن الحنفى
يرى جواز شربه ، لأن القاضي لا يرى ذلك فيعمل بإياه واجتهاده .

وَأَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رَأَى فِي قِيَامِهِ مَا رَأَاهُ الْحُسَيْنُ ، وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ ،
وَعَظَّمَهُ فِي أَمْرِ الشُّوْكَةِ أَعْظَمُ . لِأَنَّ بَنِي أَسَدٍ لَا يَبْقَاوُنَ بَنِي أُمَيَّةٍ فِي
جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ . وَالْقَوْلُ يَتَعَيَّنُ الْخَطَأَ فِي جِهَةٍ مُعَارِيَةً مَعَ عَلِيٍّ لَا
سَبِيلَ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ هُنَاكَ قَضَى لَنَا بِهِ ، وَلَمْ نَجِدْهُ هَا هُنَا . وَأَمَّا
يَزِيدُ فَعَيَّنَ خَطَأَهُ فَسَقَهُ . وَعَبْدُ الْمَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَعْظَمُ النَّاسِ
عَدَاةً ، وَتَاهِيكَ بِعَدَاةِهِ اخْتِجَاجُ مَالِكٍ بِفِعْلِهِ . وَعُدُولُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبْنِ
عُمَرَ إِلَى بَيْعَتِهِ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُمْ مَعَهُ بِالْحِجَازِ ؛ مَعَ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ
الصَّحَابَةِ كَانُوا يَرُونَ أَنَّ بَيْعَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَمْ تَنْعَقِدْ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْهَا أَهْلُ
الْعَقْدِ وَالْحَلِّ كَبَيْعَةِ مَرْوَانَ . وَابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ، وَالْكُلُّ
مُجْتَهِدٌ مُحْمُولٌ عَلَى الْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَّعِنِ فِي جِهَةِ مَنِهْمَا ،
وَالْقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَرْنَاهُ يَجِيءُ عَلَى قَوَاعِدِ الْفِقْهِ وَقَوَانِينِهِ ،
مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ مُثَابٌّ بِاعْتِبَارِ قَصْدِهِ وَتَحْرِيرِهِ الْحَقِّ .

هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ عَلَيْهِ أَعْمَالُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ
وَالتَّابِعِينَ ، فَهَمَّ خِيَارُ الْأُمَّةِ . وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عُرْضَةً لِلْقُدْحِ فَمَنْ الَّذِي
يَخْتَصُّ بِالْعَدَاةِ ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي . ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ
مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، ثُمَّ يَفْشُوا الْكُذْبَ » فَجَعَلَ الْخَيْرَةَ وَهِيَ الْعَدَاةُ مُخْتَصَّةً
بِالْقَرْنِ الْأَوَّلِ ، وَالَّذِي يَلِيهِ . فَيَأْيَاكَ أَنْ تُعَوِّدَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ التَّمَرُّضَ
لِأَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا يُشَوِّشَ قَلْبُكَ بِالرَّيْبِ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ مِنْهُمْ وَالتَّحَسُّسِ

لَهُمْ مَذَاهِبُ الْحَقِّ وَطَرَفُهُ مَا اسْتَطَعَتْ ، فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ ، وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا عَنْ بَيِّنَةٍ . وَمَا قَاتَلُوا أَوْ قُتِلُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ جِهَادٍ ، أَوْ إِظْهَارِ حَقٍّ ، وَاعْتَقَدَ مَعَ ذَلِكَ ، أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ رَحْمَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ ، لِيَسْتَدِيَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ إِمَامَهُ وَهَادِيَهُ وَدَلِيلَهُ . فَافْهَمُ ذَلِكَ ، وَتَبَيَّنَ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَكْوَانِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَإِلَيْهِ الْمُلْجَأُ وَالْمَصِيرُ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

فصل

في الخطط الدينية الخلافية

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْخِلَافَةِ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا ، فَصَاحِبُ الشَّرْعِ مُتَصَرِّفٌ فِي الْأُمُورِ : أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيَمْتَقِضُ التَّكَالِيفَ الشَّرْعِيَّةَ ، الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِهَا ، وَحُمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا ؛ وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا فَيَمْتَقِضُ رِعَايَتَهُ لِمَصَالِحِهِمْ فِي الْعُمُرَانِ الْبَشَرِيِّ . وَقَدْ قَدِّمْنَا أَنَّ هَذَا الْعُمُرَانَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ ، وَأَنَّ رِعَايَةَ مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ ، لِئَلَّا يَفْسُدَ إِنْ أَهْمَلْتْ ، وَقَدِّمْنَا أَنَّ الْمُلْكَ وَسَطَوَتُهُ كَانَ فِي حَصُولِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ . نَعَمْ إِنَّمَا نَكُونُ أَكْمَلُ ، إِذَا كَانَتْ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِهِذِهِ الْمَصَالِحِ ، فَقَدْ صَارَ الْمُلْكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا ، وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا . وَقَدْ يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ الْمِلَّةِ . وَلَهُ

عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٍ وَوُظَائِفُ تَابِعَةٍ ، تَتَعَيَّنُ خُطَطًا ، وَتَتَوَرَّعُ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَوُظَائِفَ ، فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوُظَافَتِهِ ، حَسْبَمَا يُعَيِّنُهُ الْمَلِكُ الَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ ، فَيَتِمُّ بِذَلِكَ أَمْرُهُ وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ . وَأَمَّا الْمَنْصِبُ الْخِلَافِيُّ ، وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، فَتَصَرُّفُهُ الدِّينِيَّ يَخْتَصُّ بِخُطَطٍ وَمَرَاتِبَ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ . الْإِسْلَامِيِّينَ فَلَنَذْكُرَ الْآنَ الْخُطَطَ الدِّينِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْخِلَافَةِ ، وَنَرْجِعَ إِلَى الْخُطَطِ الْمُلْكِيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الْخُطَطَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ ، مِنْ الصَّلَاةِ وَالْفَتْيَا وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ كُلُّهَا مَنْدَرِجَةٌ تَحْتَ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ الْخِلَافَةُ . فَكَانَتْهَا الْإِمَامُ الْكَبِيرُ ، وَالْأَصْلُ الْجَامِعُ ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا ، وَدَاخِلَةٌ فِيهَا لِعُمُومِ نَظَرِ الْخِلَافَةِ ، وَتَصَرُّفُهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِ الْمِلَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ ، وَتَنْفِذُ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِيهَا عَلَى الْعُمُومِ .

(فَأَمَّا إِمَامَةُ الصَّلَاةِ) فَهِيَ أَرْفَعُ هَذِهِ الْخُطَطِ كُلُّهَا ، وَأَرْفَعُ مِنَ الْمَلِكِ بِخُصُوصِهِ الْمَنْدَرِجَ مَعَهَا تَحْتَ الْخِلَافَةِ . وَلَقَدْ يَشْهَدُ لِلذَّكَاءِ اسْتِدْلَالُ الصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاسْتِخْلَافِهِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى اسْتِخْلَافِهِ فِي السِّيَاسَةِ فِي قَوْلِهِمْ : ارْتِضَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِدِينِنَا ، أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا؟ فَلَوْلَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ السِّيَاسَةِ لَمَا صَحَّ الْقِيَاسُ . وَإِذَا ثَبِتَ ذَلِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَسَاجِدَ فِي الْمَدِينَةِ صِنْفَانِ : مَسَاجِدَ عَظِيمَةٍ ، كَثِيرَةُ الْغَاشِيَةِ ^(١)

مُعَدَّةٌ لِلصَّلَاةِ الْمَشْهُودَةِ ، وَأُخْرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ ، وَلَيْسَتْ لِلصَّلَاةِ الْعَامَّةِ قَائِمًا الْمَسَاجِدُ الْعَظِيمَةُ ، فَأَمَرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، أَوْ مَنْ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ ، مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِنْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ ، فَيَنْصِبُ لَهَا الْإِمَامَ فِي الصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَالْخُسُوفَيْنِ وَالْاِسْتِسْقَاءِ . وَتَعَيَّنَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالِاسْتِحْسَانِ ، وَلِتَلَّا بَفَتَاتِ الرُّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّظَرِ ، فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ . وَقَدْ يَقُولُ بِالْوُجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ ، فَيَكُونُ نَصَبُ الْإِمَامِ لَهَا عَنْدهُ وَاجِبًا . وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمَرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْجِيرَانِ ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ . وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْوِلَايَةِ ، وَشُرُوطُهَا وَالْمَوَلَى فِيهَا مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفَقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَةِ لِلْمَاوَرِدِيِّ وَغَيْرِهِ ، فَلَا نَطُولُ بِذِكْرِهَا .

وَلَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ لَا يَقْلُدُونَهَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ ، وَانْظُرْ مِنْ طَعْنٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ ، وَتَرَصَّدْهُمْ لِذَلِكَ فِي أَوْقَاتِهَا ، يَشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِعُبَاشَتِهِمْ لَهَا ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَخْلَفِينَ فِيهَا . وَكَذَا رِجَالُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتَبَارَكُوا بِهَا وَاسْتِعْظَمُوا لِرُبَّتَيْهَا . يُحْكِي عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّهُ قَالَ لِحَاجِيهِ ، قَدْ جَعَلْتَ لَكَ حِجَابَةً

(١) من يفتشونها من المصلين .

بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ : صَاحِبِ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ بِالتَّأخيرِ ؛ وَالْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ
فَإِنَّهُ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ ؛ وَالْبَرِيدِ فَإِنَّ فِي تَأخيرِهِ فسادَ القَاصِيَةِ .

فَلَمَّا جَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَعَوَارِضُهُ مِنَ الْغِلْظَةِ ، وَالتَّرَفُّعِ عَنْ مُسَاوَاةِ
النَّاسِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ اسْتَبَاوُوا فِي الصَّلَاةِ فَكَانُوا . يَسْتَأْثِرُونَ بِهَا فِي
الْأَحْيَانِ ، وَفِي الصَّلَوَاتِ الْعَامَةِ ، كَالْمُعِيدِينَ وَالْجُمُعَةِ إِشَارَةً وَتَنْوِيهاً .
فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَالْمُعِيدِينَ صَدَرَ دَوَلَّتِهِمْ .

(وَأَمَّا الْفَتَا) فَلِلْخَلِيفَةِ تَصَفُّحُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّدرِيسُ ، وَرَدُّ الْفَتَا إِلَى
مَنْ هُوَ أَهْلُ لَهَا وَإِعَاثَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْعُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَزَجْرُهُ لِأَنَّهَا
مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَدْيَانِهِمْ ، فَتَجِبُ عَلَيْهِ مُرَاعَاتُهَا لِئَلَّا يَتَعَرَّضَ
لِلذِّكِّ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلَّ النَّاسَ ، وَلِلْمُدْرَسِ الْإِتِّصَابُ لِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ
وَبَيْتِهِ وَالْجُلُوسُ لِلذِّكِّ فِي الْمَسَاجِدِ ، فَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْمَسَاجِدِ الْعِظَامِ الَّتِي
لِلْإِسْلَامِ الْوِلَايَةُ عَلَيْهَا وَالنَّظَرُ فِي أَمْنِهَا كَمَا مَرَّ فَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِئْذَانِهِ فِي
ذَلِكَ ؛ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَسَاجِدِ الْعَامَةِ ، فَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى إِذْنِ . عَلَى
أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُعْتَمِدِينَ وَالْمُدْرَسِينَ زَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ ، يَمْتَنِعُ عَنْ
التَّصَدُّقِ لِمَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُدَلُّ بِهِ الْمُسْتَهْدَى وَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَرْشِدُ . وَفِي
الْآخِرِ : « أَجْرَاكُمْ عَلَى الْفَتَا ، أَجْرَاكُمْ عَلَى جَرَائِمِ جَهَنَّمَ » . فَلِلْإِسْلَامِ
فِيهِمْ لِلذِّكِّ مِنَ النَّظَرِ مَا تُوجِبُهُ الْمَصْلَحَةُ مِنْ إِجَازَةِ أَوْرَدَ .

(وَأَمَّا الْقَضَاءُ) فَهُوَ مِنَ الْوُظَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِأَنَّهُ مُنْصَبٌ
الْفَصْلُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْخُصُومَاتِ حَسْمًا لِلتَّدَاعَى وَقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ . إِلَّا أَنَّهُ
بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . فَكَانَ لِذَلِكَ مِنْ وُظَائِفِ
الْخِلَافَةِ ، وَمُنْتَدِجًا فِي عُمُومِهَا .

وَكَانَ الْخُلَفَاءُ فِي صِدْرِ الْإِسْلَامِ يُبَاشِرُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَلَا يَجْعَلُونَ
الْقَضَاءَ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ . وَأَوَّلُ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَقَوَّضَهُ فِيهِ عُمَرُ * قَوْلِي
أَبَا الدَّرْدَاءِ مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ ، وَوَلَّى شُرَيْحًا بِالْبَصْرَةِ ، وَوَلَّى أَبَا مُوسَى
الْأَشْعَرِيَّ بِالْكُوفَةِ وَكَتَبَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ الْمَشْهُورِ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ
أَحْكَامُ الْقَضَاءِ ، وَهِيَ مُتَوَفَّاةٌ فِيهِ يَقُولُ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ
مُحْكَمَةٌ ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ (وَأَنْفِذْ إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ) ^(١)
فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ بِحَقٍّ لَأَنْفَازِهِ لَهُ . وَأَسِرْ ^(٢) بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ
وَمَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ ، وَلَا يَأْسُ ضَعِيفٌ
مِنْ عَدْلِكَ . أَلْبَيْتُهُ عَلَى مَنْ ادْعَى ، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ . وَالصُّلْحُ
جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحْلَ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا . وَلَا يَمْنَعُكَ

(١) مَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَتَيْنِ زِيَادَةٌ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ الْقَيْمِ فِي « إِهْلَامِ الْمُوقِعِينَ » عَنْ مَشْهُورَةِ د. عَلَى

عَبْدِ الْوَاحِدِ وَافِي . انْظُرْ هَامِشَ ص ٧٣٨ فِيهِ تَعْلِيلٌ لَهُ أَهْمِيَّتُهُ حَوْلَ كِتَابِ عَمْرِو هَلْ

هُوَ صَحِيحٌ أَمْ مَوْضُوعٌ » .

(٢) سَوِ بَيْنَهُمْ فِي وَجْهِكَ ؟ بِمَعْنَى لَا تَهْشَ لِأَحَدِ الْخَصْمَيْنِ وَتَعْبَسْ فِي وَجْهِ الْآخَرِ فَلَيْسَ

هَذَا مِنَ الْعَدْلِ .

قَضَاءَ قَضَيْتَهُ أَنْسِرَ فَرَاغْتَ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ ، وَهَدَيْتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ . الْفَهْمُ الْفَهْمُ فِيمَا يَتَلَجَّجُ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ثُمَّ اعْرِفِ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهَ وَقِسِ الْأُمُورَ بِنَظَائِرِهَا . وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمَدًا يَسْتَهَيِّ إِلَيْهِ ، فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ ، أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ ، وَإِلَّا اسْتَحْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشُّكِّ ، وَاجْلِي لِلْعَمَى . الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ أَوْ مُجْرِبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ ، أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وِلَاءٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنِ الْإِيمَانِ^(١) وَدَرَأَ بِالْبَيِّنَاتِ . وَإِيَّاكَ وَالْقَلَقَ وَالضُّجُرَ وَالتَّائِفَ بِالْخُصُومِ ، فَإِنَّ اسْتِقْرَارَ الْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ ، يُعْظِمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجَرَ ، وَيُحْسِنُ بِهِ الذِّكْرَ وَالسَّلَامَ » . انْتَهَى كِتَابُ عُمَرَ .

وَأِنَّمَا كَانُوا يُقْلِدُونَ الْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ ، وَكَثْرَةُ اشْتِغَالِهَا مِنَ الْجِهَادِ وَالْفَتْوحَاتِ وَسَدِّ الشُّغُورِ وَحِمَايَةِ الْبَيْضَةِ^(٢) وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُمْ لِعِظَمِ الْعِنَايَةِ فَاسْتَخَفُّوا الْقَضَاءَ فِي الْوَأَقِعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ بِهِ

(١) في رواية ابن القيم : « فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّى مِنَ الْعِبَادِ السَّرَائِرَ وَسَتَرَ عَلَيْهِمُ الْحُدُودَ

إِلَّا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْإِيمَانِ » .

(٢) حماية أرض البلاد وما تشتمل عليه .

تَخْفِيفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ . وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَقْلُدُونَهُ أَهْلَ عَصِيَّتِهِمْ بِالنَّسَبِ
أَوْ الْوَلَاءِ ، وَلَا يَقْلُدُونَهُ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ .

وَأَمَّا أَحْكَامُ هَذَا الْمَنْصِبِ وَشُرُوطُهُ ، فَمَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ
وْخُصُوصًا كُتُبُ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ الْقَاضِيَ إِنَّمَا كَانَ فِي عَصْرِ
الْخُلَفَاءِ الْفَصْلُ بَيْنَ الْخُصُومِ فَقَطْ . ثُمَّ دُفِعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى
عَلَى التَّدْرِيجِ ، بِحَسَبِ اشْتِغَالِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ بِالسِّيَاسَةِ الْكُبْرَى .
وَاسْتَقَرَّ مَنْصِبُ الْقَضَاءِ آخِرَ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ
اسْتِيفَاءَ بَعْضِ الْحُقُوقِ الْعَامَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّظَرِ فِي أَمْوَالِ الْمَحْجُورِ عَلَيْهِمْ
مِنَ الْمَجَانِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمُقْلِينَ وَأَهْلِ السَّقَةِ وَفِي وَصَايَا الْمُسْلِمِينَ
وَأَوَاقِفِهِمْ وَتَرْوِيجِ الْإِيَامَى عِنْدَ فَقْدِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى رَأْيٍ مِنْ رَأْيِهِ ، وَالنَّظَرِ فِي
مَصَالِحِ الطَّرِيقَاتِ وَالْأَبْنِيَةِ ، وَتَصْفِيحِ الشُّهُودِ وَالْأَمْنَاءِ وَالنُّوَابِ وَاسْتِيفَاءِ
الْعِلْمِ وَالْخَبَرَةِ فِيهِمْ بِالْعَدَالَةِ وَالْجَرَحِ ^(١) لِيَحْصَلَ لَهُ الْوُثُوقُ بِهِمْ . وَصَارَتْ
هَذِهِ كُلُّهَا مِنْ تَعَلُّقَاتِ وَظِيفَتِهِ ، وَتَوَابِعِ وَلَايَتِهِ .

وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلِ يُجْعَلُونَ لِلْقَاضِي النَّظَرِ فِي الْمَظَالِمِ ، وَهِيَ
وَظِيفَةٌ مُتَرَجِّجَةٌ مِنْ سَطْوَةِ السُّلْطَانَةِ وَتَصَفِّهِ الْقَضَاءِ ، وَتَحْتَاجُ إِلَى عُلُوِّ يَدٍ
وَعَظِيمِ رَهْبَةٍ تَقْمَعُ الظَّالِمَ مِنَ الْخَصْمِينَ ، وَتَزْجِرُ الْمُتَعَدِّي . وَكَانَهُ يُمَضَّى

(١) مَا يَأْثُرُ فِي عِلَامَةِ الشَّاهِدِ وَيَسْقُطُ شَهَادَتُهُ .

ما عجزَ القضاةُ أو غيرُهم عن إفضائه . ويكونُ نظَرُهُ في البيناتِ والتعزيرِ ، واعتمادِ الأماراتِ والقرائنِ ، وتأخيرِ الحكمِ إلى استجلاءِ الحقِّ ، وحملِ الخصمينِ على الصلحِ ، واستحلافِ الشهودِ . وذلك أوسعُ من نظَرِ القاضي .

وكانَ الخلفاءُ الأولونَ يباشرونَهَا بأنفسِهِم إلى أيامِ المهتدي من بني العبَّاسِ . وربما كانوا يجعلونها لِقَضائِهِم ، كما فعلَ عمرُ* مع قاضيه أبي أدريس الحولانيّ ، وكما فعلهُ المأمونُ ليحيى بن أكرم ، والمعتصمُ لأحمد بن أبي ذؤاد . وربما كانوا يجعلونَ للقاضي قيادةَ الجهادِ في عساكرِ الطوائفِ^(١) . وكانَ يحيى بن أكرمَ يخرجُ أيامَ المأمونِ بالطائفةِ^(٢) إلى أرضِ الرومِ ، وكذا مُنذرُ بنُ سعيدٍ قاضيَ عبدِ الرحمنِ الناصرِ من بني أميةَ بالأندلسِ . فكانتَ تولىهُ هذهِ الوظائفُ ، إنما تكونُ للخلفاءِ ، أو من يجعلونَ ذلكَ لَهُ من وزيرٍ مُفوضٍ أو سلطانٍ مُتغلبٍ .

وكانَ أيضاً النظَرُ في الجرائمِ ، وإقامةِ الحدودِ في الدولةِ العبَّاسيةِ والأمويةِ بالأندلسِ والعبيديينَ بِمِصرَ والمغربِ ، راجعاً إلى صاحبِ الشرطةِ . وهي وظيفةٌ أخرى دينيةٌ كانتَ من الوظائفِ الشرعيةِ في تلكَ

(١) يرجح د. وافي أنها محرقة عن الصوائف جمع صائفة وهي النزوة في الصيف .

(٢) انظر التعليق السابق .

الدُّولِ ، تَوْسَعُ النَّظَرُ فِيهَا عَنْ أَحْكَامِ الْقَضَاءِ قَلِيلًا فَيَجْعَلُ لِلتُّهْمَةِ فِي الْحُكْمِ مَجَالًا ، وَيَفْرِضُ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةَ قَبْلَ ثُبُوتِ الْجَرَائِمِ ، وَيُقِيمُ الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا وَيَحْكُمُ فِي الْقَوْدِ وَالْقِصَاصِ وَيُقِيمُ التَّعْزِيرَ^(١) وَالتَّأْدِيبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْجَرِيمَةِ .

ثُمَّ تُتَوَسَّى شَأْنُ هَاتَيْنِ الْوُظَيْفَتَيْنِ فِي الدُّولِ الَّتِي تُتَوَسَّى فِيهَا أَمْرُ الْخِلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ الْمَظَالِمِ رَاجِعًا إِلَى السُّلْطَانِ ، كَانَ لَهُ تَقْرِيرُ مَنْ الْخَلِيفَةُ أَوْ لَمْ يَكُنْ . وَانْقَسَمَتْ وَظِيفَةُ الشَّرْطَةِ قِسْمَيْنِ : مِنْهَا وَظِيفَةُ التُّهْمَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمُبَاشَرَةُ الْقَطْعِ وَالْقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ ، وَنَصِيبٌ لِلذَّكَاءِ فِي هَذِهِ الدُّولِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجِبِ السِّيَاسَةِ دُونَ مُرَاجَعَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَيُسَمَّى تَارَةً بِاسْمِ الْوَالِي ، وَتَارَةً بِاسْمِ الشَّرْطَةِ ؛ وَيَقْيَى قِسْمُ التَّعَايِيرِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الثَّابِتَةِ شَرْعًا ، فَجُمِعَ ذَلِكَ لِلْقَاضِي مَعَ مَا تَقَدَّمَ وَصَارَ ذَلِكَ مِنْ تَوَاقِعِ وَظِيفَةِ وَلَايَتِهِ ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى ذَلِكَ ، وَخَرَجَتْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ الدَّوْلَةِ ، لِأَنَّ الْأَمْرَ لَمَّا كَانَ خِلَافَةً دِينِيَّةً ، وَهَذِهِ الْخُطَّةُ مِنْ مَرَاسِمِ الدِّينِ فَكَانُوا الْأَيُّوْلُونَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ بِالْخِلَافِ أَوْ بِالرُّقِّ أَوْ بِالْأَصْطِنَاعِ ، مِمَّنْ يُوثَقُ بِكَيْفَايَتِهِ أَوْ غَنَائِهِ ، فِيمَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ . وَلَمَّا انْقَرَضَ شَأْنُ الْخِلَافَةِ وَطَوَّرَهَا وَصَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ مُلْكًا أَوْ

(١) عقوبة يترك القاضي تقديرها حسب حجم الجريمة وظروفها .

سُلْطَانًا ، صَارَتْ هَذِهِ الْخِطَطُ الدِّيْنِيَّةُ بَعِيدَةً عَنْهُ بِعَظَمِ الشَّيْءِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ
 مِنْ أَلْقَابِ الْمَلِكِ وَلَا مَرَامِيهِ . ثُمَّ خَرَجَ الْأَمْرُ جُمْلَةً مِنَ الْعَرَبِ ، وَصَارَ
 الْمَلِكُ لِسَوَاهُمْ مِنْ أَمَمِ التُّرْكِ وَالْبَرْبَرِ ، فَازْدَادَتْ هَذِهِ الْخِطَطُ الْخِلَافِيَّةُ بُعْدًا
 عَنْهُمْ ، بِمَنْحَاهَا وَعَصِيَّتِهَا . وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ
 دِينُهُمْ ، وَأَنَّ السُّنَنَ ﷺ مِنْهُمْ وَأَحْكَامُهُ وَشَرَائِعُهُ نَحَلَتْهُمْ بَيْنَ الْأَمَمِ
 وَطَرِيقِهِمْ ، وَغَيْرَهُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ ، إِنَّمَا يُؤَلُّونَهَا جَانِبًا مِنَ التَّعْظِيمِ ،
 لِمَا دَانُوا بِالْمِلَّةِ فَقَطْ . فَصَارُوا يَقْلُدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عَصَابَتِهِمْ مِمَّنْ كَانَ تَأَهَّلَ
 لَهَا فِي دُولِ الْخُلَفَاءِ السَّالِفَةِ .

وَكَانَ أَوْلَئِكَ الْمُتَأَهِّلُونَ بِمَا أَخَذَهُمْ تَرْفُ الدُّوَلِ مِنْذُ مِثْبَتَيْنِ مِنَ السِّنِّينِ
 قَدْ نَسُوا عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَتَهَا وَالتَّبَسُّوَا بِالْحَضَارَةِ فِي عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ
 وَدَعَتِهِمْ ، وَقِلَّةِ الْمُمَانَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَصَارَتْ هَذِهِ الْخِطَطُ فِي الدُّوَلِ
 الْمُلُوكِيَّةِ مِنْ بَعْدِ الْخُلَفَاءِ مَخْتَصصةً بِهَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَهْلِ
 الْأَمْصَارِ ، وَنَزَلَ أَهْلُهَا عَنْ مَرَاتِبِ الْعِزِّ ، لِفَقْدِ الْأَهْلِيَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ ، وَمَا هُمْ
 عَلَيْهِ مِنَ الْحَضَارَةِ ، فَلَحَقَهُمْ مِنَ الْاِحْتِقَارِ مَا لَحِقَ الْحَضَرَ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي
 التَّرَفِّ وَالِدَّعَةِ الْبُعْدَاءِ عَنْ عَصِيَّةِ الْمَلِكِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى الْحَاسِيَةِ ،
 وَصَارَ اعْتِبَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ قِيَامِهَا بِالْمِلَّةِ ، وَأَخَذَهَا بِأَحْكَامِ
 الشَّرِيعَةِ لِمَا أَنَّهُمْ الْحَامِلُونَ لِلْأَحْكَامِ الْمُقْتَنُونَ بِهَا . وَلَمْ يَكُنْ إِثَارُهُمْ فِي
 الدَّوْلَةِ حَيْثُ يُحْتَدَّ إِكْرَامًا لِذَوَاتِهِمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يُتَلَمَّحُ مِنَ التَّجَمُّلِ بِمَكَانِهِمْ

فِي مَجَالِسِ الْمَلِكِ لِتَعْظِيمِ الرُّتَبِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْحُلِّ
 وَالْعَقْدِ شَيْءٌ ، وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورٌ رَسْمِيٌّ ، لِأَحْقِيقَةِ وِرَافِهِ . إِذْ حَقِيقَةُ
 الْحُلِّ وَالْعَقْدِ إِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ . فَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلَا حُلَّ لَهُ
 وَلَا عَقْدَ لَدَيْهِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَخَذُ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ عَنْهُمْ ، وَتَلَقَّى الْفَتَاوَى
 مِنْهُمْ ، فَتَنَعَ وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ ، وَرَبِّمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا وَرَاءَ
 ذَلِكَ ، وَأَنَّ فِعْلَ الْمُلُوكِ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِخْرَاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْقَضَاءِ مِنْ
 الشُّورَى مَرْجُوحٌ ، وَقَدْ قَالَ ﷺ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ . فَأَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ
 لَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ . وَحُكْمُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ
 الْعُمَرَاءِ وَإِلَّا كَانَ بَعِيدًا عَنِ السِّيَاسَةِ . فَطَبِيعَةُ الْعُمَرَاءِ فِي هَؤُلَاءِ لَا تَقْتَضِي
 لَهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الشُّورَى وَالْحُلَّ وَالْعَقْدَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ
 عَصِيَّةٍ يَتَنَبَّرُ بِهَا عَلَى حُلٍّ أَوْ عَقْدٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ . وَأَمَّا مَنْ لَا عَصِيَّةَ لَهُ
 وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئًا وَلَا مِنْ حِمَايَتِهَا إِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ ،
 فَكَيْ مَدْخَلُ لَهُ فِي الشُّورَى أَوْ أَىُّ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى اعْتِبَارِهِ فِيهَا . اللَّهُمَّ إِلَّا
 شُورَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، فَمَوْجُودَةٌ فِي الْاِسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً ؛
 وَأَمَّا شُورَاهُ فِي السِّيَاسَةِ ، فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهَا لِفَقْدَانِهِ الْعَصِيَّةِ وَالْقِيَامِ عَلَى
 مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَأَحْكَامِهَا . وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ ،
 الشَّاهِدَةِ لَهُمْ بِجَمِيلِ الْاِعْتِقَادِ فِي الدِّينِ وَتَعْظِيمِ مَنْ يَتَسَبَّبُ إِلَيْهِ بِأَىِّ جِهَةٍ
 انْتَسَبَ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ فَأَعْلَمَ أَنَّ الْفُقَهَاءَ فِي الْأَغْلَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمَا احْتَفَ بِهِ إِنَّمَا حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ أَقْوَالاً فِي كَيْفِيَّةِ الْأَعْمَالِ فِي الْعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ الْقَضَاءِ فِي الْمُعَامَلَاتِ يُنْصَوْنَهَا عَلَى مِنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا . هَذِهِ غَايَةُ أَكْبَارِهِمْ ، وَلَا يَتَصِفُونَ إِلَّا بِالْأَقْلِ مِنْهَا وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ . وَالسَّلَفُ رَضَوْنَ اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَأَهْلُ الدِّينِ وَالْوَرَعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ اتِّصَافًا بِهَا وَتَحَقُّقًا بِمَذَاهِبِهَا . فَمَنْ حَمَلَهَا اتِّصَافًا وَتَحَقُّقًا دُونَ نَقْلِ فَهُوَ مِنَ الْوَارِثِينَ مِثْلَ أَهْلِ رِسَالَةِ الْقَشِيرِيِّ . وَمِنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ فَهُوَ الْعَالِمُ ، وَهُوَ الْوَارِثُ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِثْلَ فُقَهَاءِ التَّابِعِينَ وَالسَّلَفِ وَالْأُئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَمِنْ اقْتَنَى طَرِيقَهُمْ وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِمْ .

وَإِذَا انْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ الْأُئِمَّةِ بِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَالْعَابِدُ أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ مِنَ الْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لِأَنَّ الْعَابِدَ وَرِثَ بَصِيفَةِ وَالْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لَمْ يَرِثْ شَيْئًا ، إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَقْوَالٍ يُنْصَحُهَا عَلَيْنَا فِي كَيْفِيَّاتِ الْعَمَلِ . وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ فُقَهَاءِ عَصْرِنَا ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ (١) .

(العِدَالَةُ) :

وَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ ، وَمِنْ مَوَادِّ تَصْرِيفِهِ . وَحَقِيقَةُ هَذِهِ

(١) مِنَ الْآيَةِ : ٢٤ مِنْ سُورَةِ ص

الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملاً عند الإشهاد وأداء عند التنازع وكتباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملأهم وديونهم وسائر معاملاتهم . وشرط هذه الوظيفة الانصاف بالعدالة الشرعية ، والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات ، والعقد من جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك ، من الفقه ، ولأجل هذه الشروط ، وما يحتاج إليه من الميران^(١) على ذلك ، والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول ، وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك . وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة .

ويجب على القاضي تصفح أحوالهم ، والكشف عن سيرهم ، رعاية لشرط العدالة فيهم ، وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس . فالعهدة عليه في ذلك كله ، وهو ضامن دركه^(٢) .

إذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الأمصار واشتباه الأحوال ، واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبيئات الموثوقة ، فيعولون غالباً في الوثوق بها

(١) الميران بكسر الميم التمرن والاعتدال على الشيء .

(٢) ضامن تبعته .

عَلَى هَذَا الصَّنَفِ . وَلَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَمْصَارِ دَكَكَيْنُ وَمَصَاطِبُ يَخْتَصِمُونَ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهَا ، فَيَتَعَاهَدُهُمْ أَصْحَابُ الْمُعَامَلَاتِ لِلْإِشْهَادِ وَتَقْيِيدِهِ بِالْكِتَابِ . وَصَارَ مَدْلُولُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ مُشْتَرِكًا بَيْنَ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ ، الَّتِي تَبَيَّنَ مَدْلُولُهَا ، وَبَيْنَ الْعِدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ الْجَرْحِ .

وَقَدْ يَتَوَارَدَانِ وَيَفْتَرِقَانِ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الحسبة والسكة

(أَمَّا الْحِسْبَةُ) فَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ ، مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، الَّتِي هُوَ قَرَضٌ عَلَى الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ، يُعَيِّنُ لِلذِّكْرِ مِنْ يَرَاهُ أَهْلًا لَهُ ، فَيَتَعَيَّنُ قَرَضُهُ عَلَيْهِ ، وَيَتَّخِذُ الْأَعْوَانَ عَلَى ذَلِكَ ، وَيُبْحَثُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَيُعْزِزُ ، وَيُؤَدِّبُ عَلَى قَدْرِهَا وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الْمَنَعِ مِنَ الْمَضَايِقَةِ فِي الطَّرِيقَاتِ ، وَمَنَعَ الْحَمَالِينَ وَأَهْلِي السُّفُنِ مِنَ الْإِكْثَارِ فِي الْحَمْلِ ، وَالْحَكْمَ عَلَى هَلِ الْمَبَانِي الْمَتَدَاعِيَةِ لِلْسُّقُوطِ بِهِدْمِهَا وَإِزَالَةِ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْ ضَرَرِهَا عَلَى السَّابِلَةِ ، وَالضَّرْبَ عَلَى أَيْدِي الْمُتَعَلِّمِينَ فِي الْمَكَاتِبِ وَغَيْرِهَا فِي الْإِبْلَاجِ^(١) فِي ضَرْبِهِمْ لِلصَّبِيَّانِ الْمُتَعَلِّمِينَ . وَلَا يَتَوَقَّفُ حُكْمُهُ عَلَى تَنَازُعٍ أَوْ اسْتِعْدَاءٍ ، بَلْ لَهُ النَّظَرُ وَالْحُكْمُ فِيمَا يَصِلُ إِلَى عِلْمِهِ مِنْ ذَلِكَ وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ لَهُ

(١) المبالغة فيه بما يفقد العقوبة غايتها .

إِمضاءَ الْحُكْمِ فِي الدَّعَاوِي مُطْلَقًا ، بَلْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْغِشِّ وَالتَّنْذِيرِ فِي
الْمَعَاشِ وَغَيْرِهَا فِي الْمَكَائِلِ وَالْمَوَارِينِ ، وَلَهُ أَيْضًا حَمْلُ الْمُطَاطِلِينَ عَلَى
الْإِنْصَافِ ، وَأَمثالُ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ سَمَاعُ بَيِّنَةٍ ، وَلَا إِنْقَاضُ حُكْمٍ .
وَكَانَ أَحْكَامُ بَيِّنَةِ الْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وَسُهُولَةِ أَغْرَاضِهَا ، فَتُدْفَعُ إِلَى
صَاحِبِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ لِيَقُومَ بِهَا ، فَوَضَعَهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ خَادِمَةً
لِمَنْصِبِ الْقَضَاءِ ، وَقَدْ كَانَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، مِثْلِ
الْعَبِيدِيَّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ ، وَالْأُمُويِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ ، دَاخِلَةً فِي عُمُومِ وَلَايَةِ
الْقَاضِي ، يُولَّى فِيهَا بِاخْتِيَارِهِ . ثُمَّ لَمَّا انْفَرَدَتْ وَظِيفَةُ السُّلْطَانِ عَنِ
الْخِلَافَةِ ، وَصَارَ نَظَرُهُ عَامًّا فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ ، انْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ
وَأُفِرِدَتْ بِالْوِلَايَةِ .

(وَأَمَّا السُّكَّةُ) فَهِيَ النَّظَرُ فِي النُّقُودِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ ،
وَحِفْظُهَا مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنَ الْغِشِّ أَوْ السَّقْصِ إِنْ كَانَ يَتَعَامَلُ بِهَا عَدَدًا ، أَوْ
مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ ، وَيُوصَلُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْتَابَاتِ ، ثُمَّ فِي وَضْعِ عِلَامَةٍ
السُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ النُّقُودِ بِالْإِسْتِجَادَةِ وَالْخُلُوصِ ^(١) بِرَسْمِ تِلْكَ الْعِلَامَةِ فِيهَا
مِنْ خَاتَمٍ حَدِيدٍ اتَّخَذَ لِذَلِكَ ، وَنُقِشَ فِيهِ نُقُوشٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ عَلَى
الدِّيْنَارِ ، بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِالْمِطْرَقَةِ ، حَتَّى تُرْسَمَ فِيهِ تِلْكَ

(١) مِنَ التَّزْيِيفِ وَالْغِشِّ .

النُّقُوشُ ، وَتَكُونُ عَلَامَةً عَلَى جَوَدَتِهِ بِحَسَبِ الْغَايَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا السَّبْكُ
وَالْتَخْلِيسُ فِي مُتَعَارِفِ أَهْلِ الْقَطْرِ ، وَمَذَاهِبِ الدُّوَلَةِ الْحَاكِمَةِ .

فَإِنَّ السَّبْكَ وَالتَّخْلِيسَ فِي النُّقُودِ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ ، وَإِنَّمَا تَرْجِعُ
غَايَتُهُ إِلَى الاجْتِهَادِ . فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أَثْنِي ، أَوْ قَطْرِ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّخْلِيسِ ،
وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَوْهَا إِمَامًا وَعِيَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ نُقُودَهُمْ وَيَتَقَدَّرُونَ بِمِثَالَتِهِ .
فَإِنَّ نَقْصَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ رَيْفًا .

وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ ، وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهَذَا
الاعتبار ، فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ ، وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ وِلَايَةِ
الْقَاضِي ، ثُمَّ أَفْرَدَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي الْحِسْبَةِ .

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْوِظَايِفِ الْخِلَافِيَّةِ ، وَبَقِيَتْ مِنْهَا وَظَايِفُ ذَهَبَتْ
بِذَهَابِ مَا يَنْظَرُ فِيهِ ، وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً .

فَوِظِيفَةُ الْإِمَارَةِ وَالْوَرَارَةِ وَالْحَرْبِ وَالْخَرَاجِ ، صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً تَتَكَلَّمُ
عَلَيْهَا فِي أَمَاكِينِهَا بَعْدَ وَظِيفَةِ الْجِهَادِ .

وَوِظِيفَةُ الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِطُلَاقِهِ ، إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يُمَارِسُونَهُ ،
وَيُذَرِّجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي السُّلْطَانِيَّاتِ .

وَكَذَلِكَ نِقَابَةُ الْأَنْسَابِ ، الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ أَوْ الْحَقِّ فِي بَيْتِ

الْمَالِ ، قَدْ بَطَلَتْ لِدُثُورِ الْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا ، وَبِالْجُمْلَةِ قَدْ اندَرَحَتْ رُسُومُ
الْخِلَافَةِ وَوُطَّئَتْهَا فِي رُسُومِ الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ ، لِهَذَا الْعَهْدِ .
وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ .

فصل

في اللقب يا مير المؤمنين . وأنه من سمات الخلافة . وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَسَائِرُ الْمُسْلِمِينَ يُسَمُّونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ
إِلَى أَنْ هَلَكَ . فَلَمَّا بُويعَ لِعُمَرَ بِعَهْدِهِ إِلَيْهِ ، كَانُوا يَدْعُونَهُ خَلِيفَةَ خَلِيفَةَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَكَأَنَّهُمْ اسْتَقْبَلُوا هَذَا اللَّقْبَ بِكَثْرَتِهِ وَطُولِ إِضَافَتِهِ ، وَأَنَّهُ
يَتَزَايَدُ فِيمَا بَعْدُ دَائِمًا ، إِلَى أَنْ يَتَّهِى إِلَى الْهَجْتَةِ ^(١) ، وَيَذْهَبَ مِنْهُ التَّمْيِيزُ
بِتَعَدُّدِ الْإِضَافَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَلَا يُعْرَفُ فَكَانُوا يَمْدِلُونُ عَنْ هَذَا اللَّقْبِ إِلَى مَا
سِوَاهِ ، مِمَّا يُنَاسِبُهُ وَيُدْعَى بِهِ مِثْلُهُ ، وَكَانُوا يُسَمُّونَ قُوَادًا بِاسْمِ الْأَمِيرِ ،
وَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ الْإِمَارَةِ ، وَقَدْ كَانَ الْجَاهِلِيَّةُ يَدْعُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَمِيرَ مَكَّةَ ،
وَأَمِيرَ الْحِجَارِ ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ أَيْضًا يَدْعُونَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ لَوْلَايَتِهِ عَلَى جَيْشِ الْقَادِسِيَّةِ ، وَهُمْ مَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ .

(١) الهجته في الكلام ما يعنيه .

وَاتَّفَقَ أَنْ دَعَا بَعْضُ الصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَحْتَهُ
النَّاسُ ، وَاسْتَصْرَبُوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ . يُقَالُ إِنَّ مَنْ دَعَا بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
جَحْشٍ ، وَقِيلَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ ، وَالْمُخَيَّرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ، وَقِيلَ : بَرِيدُ
جَاءَ بِالْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ الْبُعُوثِ ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ، وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ ،
وَيَقُولُ أَيْنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ وَسَمِعَهَا أَصْحَابُهُ فَاِسْتَحْتَوْهُ ، وَقَالُوا :
أَصَبَتْ وَاللَّهِ اسْمُهُ ، إِنَّهُ وَاللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا . فَدَعَوْهُ بِذَلِكَ ، وَذَهَبَ
لَقَبًا لَهُ فِي النَّاسِ ، وَتَوَارَثَهُ الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ ، سِمَةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ
سِوَاهُمْ سِائِرَ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ .

فصل

في مراتب الملك والسلطان والقباطا

إِعْلَمَنَّ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ ، يُحْمَلُ أَمْرًا ثَقِيلًا ، فَلَا يَدُّ لَهُ مِنْ
الاسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ ، وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فَيُضْرِبُ ضَرْبَ مَعَاثِيهِ وَسَائِرِ
مِهْنَةٍ ^(١) ، فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ ، وَمَنْ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ .
وَهُوَ مُتَحَاجٌّ إِلَى حِمَايَةِ السَّكَّافَةِ مِنْ عَدُوِّهِمُ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ ، وَإِلَى كَفِّ
عَدُوَّانٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ ، بِإِمْقَاءِ الْأَحْكَامِ الْوَارِعَةِ فِيهِمْ ،
وَكَفِّ الْعَدُوَّانِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ ، بِإِصْلَاحِ سَابِلَتِهِمْ ، وَإِلَى حَمْلِهِمْ عَلَى

(١) المهنة الخلعة وجمعها مهن بكسر الميم .

مَصَالِحِهِمْ ، وَمَا تَعْمَهُمْ بِهِ الْبَلَوَى فِى مَعَاشِهِمْ وَمَعَامَلَاتِهِمْ ، مِنْ تَقْدِيرِ
الْمَعَاشِ وَالْمَكَائِلِ وَالْمَوَارِدِ حَذَرًا مِنَ التَّطْفِيفِ ، وَإِلَى النَّظَرِ فِى السَّكَّةِ
بِحِفْظِ الشُّقُودِ الَّتِى يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ الْفِشِّ ، وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ
مِنْهُمْ مِنَ الْإِنْقِيَادِ لَهُ ، وَالرَّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ ، وَأَنْفِرَادِهِ بِالْمَجْدِ دُونَهُمْ ،
فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ الْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ الْقُلُوبِ .

قَالَ بَعْضُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْحُكَمَاءِ : « لَمُعَانَاةُ نَقْلِ الْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا
أَهْوَنُ عَلَى مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ الرِّجَالِ » .

ثُمَّ إِنَّ الْأِسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأَوْلَى الْقُرْبَى ، مِنْ أَهْلِ السَّنَبِ ، أَوْ
التَّرْبِيَةِ ، أَوْ الْأَصْطِنَاعِ الْقَدِيمِ لِلدَّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ ، لِمَا يَقَعُ فِى ذَلِكَ مِنْ
مُجَانَّةِ خَلْقِهِمْ لِخَلْقِهِ ، فَتَتِمُّ الْمُشَاكَلَةُ فِى الْأِسْتِعَانَةِ ، قَالَ تَعَالَى :
﴿ وَاجْعَلْ لِي وِزِيرًا مِنْ أَهْلِى ، هَارُونَ أَخِى ، أَشَدُّ بِهِ أَزْدِى ، وَأَشْرَكَهُ بِى
أَمْرِى ﴾ (١) .

وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِى ذَلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ أَوْ
بِحُجَابِهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيَشْغَلُوهُ عَنِ النَّظَرِ فِى مُهِمَّاتِهِمْ ، أَوْ
يَدْفَعُ النَّظَرَ فِى الْمُلْكِ كُلِّهِ [إِلَيْهِ] (٢) ، وَيَعْوَكُ عَلَى كِفَايَتِهِ فِى ذَلِكَ ،

(١) الْآيَاتِ رَقْم : ٢٩ - ٣٢ مِنْ سُورَةِ طه .

(٢) فِى هَامِشِ هَذِهِ الْمُبَارَةِ ص ٧٧٢ ج ٢ مِنْ مَنَشُورَةِ د . وَافِى إِضَافَةِ كَلِمَةِ « إِلَيْهِ » كَى
يَسْتَقِيمُ السِّيَاقُ .

وَأَضْلَعَهُ . فَلِلَّذَلِكَ قَدْ تَوَجَّدَ فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَقَدْ تَفَتَّرَقُ فِي أَشْخَاصٍ .
وَقَدْ يَتَفَرَّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ . كَالْقَلَمِ يَتَفَرَّقُ ، إِلَى قَلَمِ
الرِّسَائِلِ وَالْمُخَاطَبَاتِ ، وَقَلَمِ الصُّكُوكِ وَالْإِقْطَاعَاتِ ، وَإِلَى قَلَمِ
الْمُحَاسَبَاتِ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْجَبَايَةِ وَالْعَطَاءِ وَدِيَّانِ الْجَيْشِ . وَكَالسَيْفِ ،
يَتَفَرَّقُ إِلَى : صَاحِبِ الْحَرْبِ ؛ وَصَاحِبِ الشُّرْطَةِ ؛ وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ ؛
وَوَلَايَةِ الشُّغُورِ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْوُظَائِفَ السُّلْطَانِيَّةَ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُتَدَرِّجَةٌ تَحْتَ
الْخِلَافَةِ ، لِأَسْتِمَالِ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ عَلَى الدِّينِ وَالدُّنْيَا كَمَا قَدَّمَاهُ .
فَالْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيعِهَا وَمَوْجُودَةٌ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِي سَائِرِ
وُجُوهِهَا ، لِغَمُومِ تَعَلُّقِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ ، بِجَمِيعِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ . وَالْفَقِيهُ
يَنْظُرُ فِي مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا اسْتِبْدَادًا عَلَى الْخِلَافَةِ ،
وَهُوَ مَعْنَى السُّلْطَانِ ، أَوْ تَعْوِيضًا مِنْهَا ، وَهُوَ مَعْنَى الْوِزَارَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا
يَأْتِي ، وَفِي نَظَرِهِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأُمُورِ وَسَائِرِ السِّيَاسَاتِ ، مُطْلَقًا أَوْ
مُقْبَدًا ، وَفِي مُوجِبَاتِ الْعَزْلِ ، إِنْ عَرَضَتْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الْمَلِكِ
وَالسُّلْطَانِ ، وَكَذَا فِي سَائِرِ الْوُظَائِفِ الَّتِي تَحْتَ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ
وِزَارَةِ أَوْ جَبَايَةِ أَوْ وَلَايَةِ ، لِأَبَدٍ لِلْفَقِيهِ مِنْ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ لِمَا
قَدَّمَاهُ ، مِنْ انْتِسَابِ حُكْمِ الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى رَتَبَةِ
الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ .

إِلَّا أَنْ كَلَامَنَا فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَرَبِّيَّةِ إِنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ الْعُمَرَانِ وَوُجُودِ الْبَشَرِ ، لَا يَمَّا يَخْصُهَا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ ؛ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ ، فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ ، مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوَفَاةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ ، مِثْلَ كِتَابِ الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ الْمَاوَرَدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ الْفُقَهَاءِ . فَإِنْ أَرَدْتَ اسْتِيفَاءَهَا فَعَلَيْكَ بِمُطَالَعَتِهَا هُنَاكَ . وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي الْوِظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ ، وَأَفْرَدْنَاهَا لِنُمِيزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوِظَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ ، لَا لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ ، فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا . وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ذَلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ فِي الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّ .

(الوزارة) وَهِيَ أَمُّ الْخُطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَالرُّتَبِ الْمُلُوكِيَّةِ ، لِأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الْإِعَانَةِ . فَإِنَّ الْوِزَارَةَ مَأْخُودَةٌ : إِمَّا مِنَ الْمُوَازَرَةِ ، وَهِيَ الْمُعَاوَنَةُ ؛ أَوْ مِنَ الْوِزْرِ ، وَهُوَ الثَّقُلُ ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ ، مَعَ مُفَاعِلِهِ ، أَوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمُعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ .

وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ السُّلْطَانِ وَتَصَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً . لَآئِهَا :

إِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ الْكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْعِجْدِ وَالسَّلَاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَايَةِ وَالْمُطَالَبَةِ . وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الْوَزِيرُ الْمُتَعَارِفُ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ ، بِالْمَشْرِقِ ، وَلِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ .

وَأَمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورٍ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُ فِي أُمُورٍ جَبَايَةِ الْمَالِ
وَأَنْفَاقِهِ ، وَضَبْطُ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْبُطَةٍ . وَصَاحِبُ
هَذَا هُوَ صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَزِيرِ ، لِهَذَا الْعَهْدِ
بِالْمَشْرِقِ .

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مُدَافَعَةِ النَّاسِ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزْدَحِمُوا
عَلَيْهِ ، فَيُشْغَلُوا عَنْ فَهْمِهِ . وَهَذَا رَاجِعٌ لِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِي يَحْتَجُّهُ .

فَلَا تَعُدُّ أَحْوَالَهُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ ^(١) بِوَجْهِ . وَكُلُّ خِطَّةٍ أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتَبِ
الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ فَإِلَيْهَا يَرْجِعُ . إِلَّا أَنْ الْأَرْفَعَ مِنْهَا مَا كَانَتْ الْإِعَانَةُ فِيهِ
عَامَّةً فِيمَا تَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ ، مِنْ ذَلِكَ الصَّنْفِ ، إِذْ هُوَ يَقْتَضِي مَبَاشَرَةَ
السُّلْطَانِ دَائِمًا ، وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَحْوَالِ مُلْكِهِ . وَأَمَّا مَا كَانَ
خَاصًّا بِبَعْضِ النَّاسِ ، أَوْ بِبَعْضِ الْجِهَاتِ ، فَيَكُونُ دُونَ الرُّتْبَةِ الْأُخْرَى
كَقِيَادَةِ ثَغَرٍ ، أَوْ وِلَايَةِ جَبَايَةٍ خَاصَّةٍ ، أَوْ النَّظَرِ فِي أَمْرِ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ
الطَّعَامِ ، أَوْ النَّظَرِ فِي السُّكَّةِ ، فَإِنَّ هَذِهِ كُلُّهَا نَظَرٌ فِي أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ ،
فَيَكُونُ صَاحِبُهَا تَبَعًا لِأَهْلِ النَّظَرِ الْعَامِّ ، وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرُؤُسَةً لِأُولَئِكَ .

وَمَا زَالَ الْأَمْرُ فِي السُّلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ هَكَذَا ، حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ ،
وَصَارَ الْأَمْرُ خِلَافَةً ، فَذَهَبَتْ تِلْكَ الْخُطُطُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ الْمَلِكِ ^(٢) إِلَّا

(١) هكذا في الأصل .

(٢) في جميع النسخ « إلى » وهو تحريف لا يستقيم معه للمعنى

مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ ، مِنْ الْمَعَاوَنَةِ بِالرَّأْيِ ، وَالْمُقَاوَضَةِ فِيهِ ، فَلَمْ يُمَكِّنْ رِوَالَهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا يَبْدُ مِنْهُ . فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ ، وَيُقَاوِضُهُمْ فِي مَهْمَاتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَيَخْصُرُ مَعَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ بِخُصُوصِيَّاتٍ أُخْرَى ، حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ عَرَفُوا الدُّوْلَ وَأَحْوَالَهَا فِي كِسْرَى وَقَيْصَرٍ وَالسَّجَاشِيَّ ، يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزِيْرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، لِلذَّهَابِ رُتْبَةُ الْمَلِكِ بِسَلْجَاقَةِ الْإِسْلَامِ . وَكَذَا عُمَرُ مَعَ آيِ بَكْرٍ ، وَعَلِيٌّ وَعُثْمَانُ مَعَ عُمَرَ .

وَأَمَّا حَالُ النِّجَابَةِ وَالْإِنْفَاقِ ، وَالْحُسْبَانِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِرُتْبَةٍ ، لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أُمِّيِّينَ ، لَا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ، فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فِي الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ ، أَوْ أَفْرَادًا مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ ، مِنْ يَجِيْدُهُ ، وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ . وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيْدُونَهُ ، لِأَنَّ الْأُمِّيَّةَ كَانَتْ صِفَتُهُمُ الَّتِي امْتَاَزُوا بِهَا . وَكَذَا حَالُ الْمُخَاطَبَاتِ وَتَنْفِيْذِ الْأُمُورِ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ رُتْبَةٌ خَاصَّةٌ لِلْأُمِّيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ ، وَالْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ فِي كِتْمَانِ الْقَوْلِ وَتَأْدِيَتِهِ ، وَلَمْ تُخْرَجْ ^(١) السِّيَاسَةُ إِلَى اخْتِيَارِهِ لِأَنَّ الْخِلَافَةَ إِنَّمَا هِيَ دِيْنٌ لَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ الْمُلْكِيَّةِ فِي شَيْءٍ وَأَيْضًا فَلَمْ تَكُنِ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً ، فَيُسْتَجَادُ لِلْخَلِيفَةِ أَحْسَنُهَا لِأَنَّ الْكُلَّ كَانُوا يُعْبِرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ ، بِأَبْلَغِ

(١) فِي أَكْثَرِ النُّسخِ « تَخْرُجُ » وَيَأْبَاهُ السِّيَاقُ .

الْعِبَارَاتِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخَطُّ فَكَانَ الْخَلِيفَةُ يَسْتَتِيبُ فِي كِتَابَتِهِ ، مَتَى عَنْ
لَهُ مَنْ يُحْسِنُهُ .

وَأَمَّا مُدَافَعَةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْ آبَائِهِمْ ، فَكَانَ مُحْظُورًا بِالشَّرِيعَةِ ،
فَلَمْ يَفْعَلُوهُ .

فَلَمَّا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمُلْكِ ، وَجَاءَتْ رُسُومُ السُّلْطَانِ وَالْقَابِئِ ،
كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ بُدِيَ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ شَأْنُ الْبَابِ ، وَسَدُّ دُونَ الْجُهُورِ ، بِمَا
كَانُوا يَخْشَوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ اغْتِيَالِ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا وَقَعَ يَعْمَرُ
وَعَلِيٌّ وَمُعَاوِيَةُ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَغَيْرِهِمْ . مَعَ مَا فَسَدَ فَتَحَهُ مِنْ اِرْتِدَاجِ
النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشُغْلِهِمْ بِهِمْ عَنِ الْمَسْئَلَاتِ ، فَاتَّخَذُوا مَنْ يَقُومُ لَهُمْ بِذَلِكَ
وَسَمَّوْهُ الْحَاجِبَ .

وَقَدْ جَاءَ : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمَّا وَلِيَ حَاجِبُهُ ، قَالَ لَهُ قَدْ وَلَّيْتُكَ حِجَابَةً
بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ : الْمُؤَذِّنَ لِلصَّلَاةِ ، فَإِنَّهُ دَاعِيَ اللَّهِ ، وَصَاحِبَ الْبَرِيدِ ،
فَأَمْرُ مَا جَاءَ بِهِ ، وَصَاحِبَ الطَّعَامِ لِئَلَّا يَفْسُدَ .

ثُمَّ اسْتَفْحَلَ الْمُلْكُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَظَهَرَ الْمُشَاوِرُ وَالْمُعِينُ فَمَسَى أُمُورِ
الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَاسْتِنَالَفِهِمْ ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْوَزِيرِ . وَبَقِيَ أَمْرُ
النُّحْبَانِ فِي الْمَوَالِي وَالذَّمَمِيِّينَ . وَاتَّخَذَ لِلسُّجَلَاتِ كَاتِبٌ مَخْصُوصٌ حَوْطَةً
عَلَى أَسْرَارِ السُّلْطَانِ أَنْ تَشْتَهَرَ فَتَفْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِمَثَابَةِ

الوزير ، لأنه إذا احتيج له من حيث الخط والكتاب ، لا من حيث اللسان الذي هو الكلام ، إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد . فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ في سائر دوله بني أمية . فكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات ، والمطالبات ، وما يتبعها من النظر في ديوان الجند ، وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك .

فلما جاءت دولة بني العباس ، واستحل الملك وعظمت مراتبه ، وارتفعت ، وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، تعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسين لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند ، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، وأضيف إليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر في القلم والترسيم لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان السلطان قد فسد عند الجمهور ، وجعل الخاتم لسيجلات السلطان ليحفظها من الذيع والشياع ، ودفع إليه . فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعى جعفر ابن يحيى بالسلطان أيام الرشيد ، إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة . ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها ، إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك .

ثُمَّ جَاءَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ شَأْنُ الاسْتِبدَادِ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَتَعَاوَرَ فِيهَا اسْتِبدَادُ الْوِزَارَةِ مَرَّةً ، وَالسُّلْطَانِ أُخْرَى ، وَصَارَ الْوِزِيرُ إِذَا اسْتَبَدَّ مُنْتَاجًا إِلَى اسْتِنَابَةِ الْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ لِلذِّكْرِ لِتَصِحِّحِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَتَجِيءَ عَلَى حَالِهَا ، كَمَا تَقَدَّمَ .

فَانْقَسَمَتِ الْوِزَارَةُ حَيْثُ إِلَى وَزَارَةِ تَنْفِيزٍ ، وَهِيَ حَالُ مَا يَكُونُ السُّلْطَانُ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَإِلَى وَزَارَةِ تَقْوِيضٍ ، وَهِيَ حَالُ مَا يَكُونُ الْوِزِيرُ مُسْتَبَدًّا عَلَيْهِ . ثُمَّ اسْتَمَرَ الاسْتِبدَادُ وَصَارَ الْأَمْرُ لِمُلُوكِ الْعَجَمِ ، وَتَعَطَّلَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ . وَكَمْ يَكُنْ لِأَوْلَيْكَ الْمُتَغَلِّينَ أَنْ يَتَحَلَّوْا أَلْقَابَ الْخِلَافَةِ ، وَاسْتَكْبَرُوا مِنْ مُشَارَكَةِ الْوُزَرَاءِ فِي السُّلْبِ لِأَنَّهُمْ خَوْفُ لَهُمْ فَتَسَمَّوْا بِالْإِمَارَةِ وَالسُّلْطَانِ . وَكَانَ الْمُسْتَبَدُّ عَلَى الدَّوْلَةِ ، يُسَمَّى أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ ، أَوْ بِالسُّلْطَانِ إِلَى مَا يُحْلِيهِ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنْ أَلْقَابِهِ كَمَا تَرَاهُ فِي أَلْقَابِهِمْ ، وَتَرَكُوا اسْمَ الْوِزَارَةِ إِلَى مَنْ يَقُولُهَا لِلْخَلِيفَةِ فِي خَاصَّتِهِ . وَكَمْ يَزُلْ هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَهُمْ إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ . وَقَسَدَ السُّلْطَانُ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَصَارَتْ صِنَاعَةُ يَتَحَلَّوْا بَعْضُ النَّاسِ ، فَاثْمَنْتْ وَتَرَفَّعَ الْوُزَرَاءُ عَنْهَا لِلذِّكْرِ ، وَلَأَنَّهُمْ عَجَمٌ ، وَلَيْسَتْ تِلْكَ الْبَلَاغَةُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ لِسَانِهِمْ ، فَتَخَيَّرَ لَهَا مِنْ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ ، وَاخْتَصَّتْ بِهِ ، وَصَارَتْ خَادِمَةً لِلْوِزِيرِ . وَاخْتَصَّ اسْمُ الْأَمِيرِ بِصَاحِبِ الْحُرُوبِ وَالْجُنْدِ ، وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا ، وَيَدُهُ مَعَ ذَلِكَ عَالِيَةً عَلَى أَهْلِ الرُّتَبِ وَأَمْرُهُ نَافِذٌ فِي الْكُلِّ : إِمَّا نِيَابَةً أَوْ اسْتِبدَادًا ، وَاسْتَمَرَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا .

ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ التُّرْكِ آخِرًا بِعِصْرٍ ، فَرَأَوْا أَنَّ الْوِزَارَةَ قَدْ ابْتَدَلَتْ بِتَرْفَعٍ أَوْلَئِكَ عَنْهَا ، وَدَفَعَهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا لِلْخَلِيفَةِ الْمَحْجُورِ ، وَنَظَرَهُ مَعَ ذَلِكَ مُتَعَقِّبٌ يَنْظُرُ الْأَمِيرَ فَصَارَتْ مَرَّةً نَاقِصَةً ، فَاسْتَكْفَ أَهْلُ هَذِهِ الرُّتَبَةِ الْعَالِيَةِ فِي السُّوْلَةِ عَنْ اسْمِ الْوِزَارَةِ ، وَصَارَ صَاحِبُ الْأَحْكَامِ وَالنَّظَرِ فِي الْجَنْدِ ، يُسَمَّى عَنْدهُمْ بِالنَّائِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَيَقَى اسْمُ الْحَاجِبِ فِي مَدْلُولِهِ وَاخْتَصَّ اسْمُ الْوَزِيرِ عَنْدهُمْ بِالنَّظَرِ فِي الْجَبَايَةِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَنْفَوْا اسْمَ الْوَزِيرِ فِي مَدْلُولِهِ أَوَّلَ السُّوْلَةِ ، ثُمَّ قَسَمُوا خُطَّتَهُ أَصْنَافًا ، وَأَفْرَدُوا لِكُلِّ صِنْفٍ وَزِيرًا ، فَجَعَلُوا لِحُسْبَانِ الْمَالِ وَزِيرًا ، وَلِلتَّرْسِيلِ وَزِيرًا ، وَلِلنَّظَرِ فِي حَوَائِجِ الْمُتَطَلِّعِينَ وَزِيرًا ، وَلِلنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ أَهْلِ الثُّغُورِ وَزِيرًا ، وَجَعِلَ لَهُمْ بَيْتٌ يَجْلِسُونَ فِيهِ عَلَى فُرْشٍ مُتَضَدَّةٍ لَهُمْ ، وَيَقْدُونَ أَمْرَ السُّلْطَانِ هُنَا كُلِّ فَيْسَمَا جُعِلَ لَهُ ، وَأَفْرَدَ لِلتَّرَدُّدِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَلِيفَةِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ارْتَفَعَ عَنْهُمْ بِمُبَاشَرَةٍ السُّلْطَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، فَأَرْتَفَعَ مَجْلِسُهُ عَنْ مَجَالِسِهِمْ ، وَخَصَّوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ . وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ هَذَا إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ ، فَأَرْتَفَعَتْ خُطَّةُ الْحَاجِبِ وَمَرَّتْهُ عَلَى سَائِرِ الرُّتَبِ حَتَّى صَارَ مَلُوكُ الطَّوَائِفِ يَتَحِلُّونَ لِقَابَهَا فَأَكْثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ يُسَمَّى الْحَاجِبِ كَمَا نَذَكَّرُهُ .

ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ الشَّيْعَةِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَالْقَيْرَوَانِ وَكَانَ لِلْقَائِمِينَ بِهَا رُسُوخٌ فِي الْبِدَاوَةِ فَاعْغَلُوا أَمْرَ هَذِهِ الْخُطَطِ أَوَّلًا وَتَنَفَّحَ أَسْمَانِهَا كَمَا تَرَاهُ فِي أَخْبَارِ دَوْلَتِهِمْ .

وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِّدِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَغْفَلَتْ الْأُمُورَ أَوَّلًا لِلْبِدَاوَةِ ،
ثُمَّ صَارَتْ إِلَى انْتِحَالِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ ، وَكَانَ اسْمُ الْوَزِيرِ فِي مَذَلُولِهِ ،
ثُمَّ اتَّبَعُوا دَوْلَةَ الْأُمَوِيِّينَ وَقَلَّدُوا فِي مَذَاهِبِ السُّلْطَانِ وَاخْتَارُوا اسْمَ الْوَزِيرِ
لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانُ فِي مَجْلِسِهِ وَيَقِفُ بِالْوُقُودِ وَالِدَاخِلِينَ عَلَى السُّلْطَانِ
عِنْدَ الْحُدُودِ فِي تَحِيَّهِمْ وَخِطَابِهِمْ وَالْآدَابِ الَّتِي تَلْزَمُ فِي الْكُونِ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
وَرَفَعُوا خُطَّةَ الْحِجَابَةِ عَنْهُ مَا شَاءُوا ، وَلَمْ يَزَلِ الشَّانُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ .

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَيُسَمُّونَ هَذَا الَّذِي يَقِفُ بِالنَّاسِ عَلَى
حُدُودِ الْآدَابِ فِي السَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ فِي مَجَالِسِ السُّلْطَانِ وَالتَّقَدُّمِ بِالْوُقُودِ بَيْنَ
يَدَيْهِ ، الدَّوَيْدَارَ ، وَيُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ اسْتِئْجَاعَ كَاتِبِ السَّرِّ وَأَصْحَابِ الْبَرِيدِ
الْمُتَصَرِّفِينَ فِي حَاجَاتِ السُّلْطَانِ بِالْقَاصِيَةِ وَبِالْحَاضِرَةِ ، وَحَالُهُمْ عَلَى ذَلِكَ
لِهَذَا الْعَهْدِ . وَاللَّهُ مُوَلِّي الْأُمُورِ لِمَنْ يَشَاءُ .

(الحِجَابَةُ) قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا اللَّقْبَ كَانَ مَخْصُوصًا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
وَالْعَبَّاسِيَّةِ بِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَّةِ ، وَيُغْلِقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَفْتَحُهُ
لَهُمْ عَلَى قَدَرِهِ فِي مَوَاقِيْتِهِ . وَكَانَتْ هَذِهِ مُتَزَلَّةً يَوْمًا عَنِ الْخُطَطِ مَرْوُوسَةً
لَهَا ؛ إِذِ الْوَزِيرُ مُتَصَرِّفٌ فِيهَا بِمَا يَرَاهُ . وَهَكَذَا كَانَتْ سَائِرُ أَيَّامِ بَنِي
الْعَبَّاسِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ ، فَهِيَ بِمَصَرٍّ مَرْوُوسَةٌ لِصَاحِبِ الْخُطَّةِ الْعُلْيَا
الْمُسَمَّى بِالنَّائِبِ .

وَأَمَّا فِي السُّدُورَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتِ الْحِجَابَةُ لِمَنْ يَحْجُبُ
السُّلْطَانَ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، وَيَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُزَرَاءِ فَمَنْ
دُونَهُمْ . فَكَانَتْ فِي دَوَلَّتِهِمْ رَفِيعَةً غَايَةً كَمَا تَرَاهُ فِي أَخْبَارِهِمْ ، كَابْنِ
حَدِيدٍ وَغَيْرِهِ مِنْ حُجَّابِهِمْ . ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْاسْتِبدَادُ عَلَى السُّدُورَةِ اخْتَصَصَ
الْمُسْتَبْدُ بِاسْمِ الْحِجَابَةِ لِشَرْفِهَا ، فَكَانَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ وَأَبْنَاهُ
كَذَلِكَ . وَلَمَّا بَدَا فِي مَظَاهِرِ الْمَلِكِ وَأَطْوَارِهِ ، جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ مُلُوكِ
السُّدُورَةِ ، فَلَمْ يَتْرَكُوا لِقَبِّهَا ، وَكَانُوا يَدْعُونَهُ شَرَفًا لَهُمْ . وَكَانَ أَعْظَمُهُمْ
مُلْكًا بَعْدَ انْتِحَالِ الْقَابِ الْمَلِكِ وَأَسْمَاءِهِ ، لِأَنَّهُ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الْحَاجِبِ وَذِي
الْوَرَادَتَيْنِ ، يَعْنُونَ بِهِ السِّيفَ وَالْقَلَمَ .

وَيَدُلُّونَ بِالْحِجَابَةِ عَلَى حِجَابَةِ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَيَذِي
الْوَرَادَتَيْنِ عَنْ جَمْعِهِ لِحِطَّتِي السِّيفِ وَالْقَلَمِ . ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دَوْلِ الْمَغْرِبِ
وَأَفْرِيقِيَّةٍ ذِكْرٌ لِهَذَا الْأَسْمِ لِلْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ ، وَرَبَّمَا يَوْجَدُ فِي دَوْلَةِ
الْعَبِيدِيَّةِ بِمِصْرَ عِنْدَ اسْتِعْظَامِهَا وَحَضَارَتِهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ .

وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ لَمْ تَسْتَمْكِنْ فِيهَا الْحِضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى
انْتِحَالِ الْأَلْقَابِ ، وَتَمْيِيزِ الْخُطَطِ ، وَتَغْيِيهِهَا بِالْأَسْمَاءِ ، إِلَّا آخِرًا . فَلَمْ
يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الرَّتَبِ إِلَّا الْوَزِيرُ . فَكَانُوا أَوَّلًا يَخْصُونَ بِهِ هَذَا الْأَسْمَ
الْكَاتِبَ الْمُتَصَرِّفَ الْمُشَارِكَ لِلسُّلْطَانِ ، فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَابْنِ عَطِيَّةٍ وَعَبْدِ
السَّلَامِ الْكُومِيَّ ، وَكَانَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي الْحِسَابِ ، وَالْأَشْغَالِ الْمَالِيَّةِ .

ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْمُ الْوَزِيرِ ، لِأَهْلِ نَسَبِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمُوحِدِينَ ، كَابْنِ جَامِعٍ وَغَيْرِهِ . وَلَمْ يَكُنْ اسْمُ الْحَاجِبِ مَعْرُوفًا فِي دَوْلَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ .

وَأَمَّا بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَّةٍ ، فَكَانَتْ الرِّيَاسَةُ فِي دَوْلَتِهِمْ أَوَّلًا ، وَالتَّغْدُمُ لَوَزِيرِ الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ ؛ وَكَانَ يُخَصُّ بِاسْمِ شَيْخِ الْمُوحِدِينَ ، وَكَانَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْوَلَايَاتِ وَالْعَزَلِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ وَالْحُرُوبِ ، وَاخْتَصَّ الْحُسْبَانُ وَالذِّيَوَانُ بِرُتْبَةٍ أُخْرَى ، وَيُسَمَّى مَتَوَلِّيَهَا بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ ، يَنْظُرُ فِيهَا النَّظَرَ الْمُطْلَقَ فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ ، وَيَحَاسِبُ وَيَسْتَخْلَصُ الْأُمُورَ ، وَيُعَاقِبُ عَلَى التَّفْرِيطِ . وَكَانَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُوحِدِينَ .

وَاخْتَصَّ عِنْدَهُمُ الْقَلَمُ أَيْضًا بِعَمَلِ يُجِيدُ التَّرْسِيلَ ، وَيُؤْتَمَنُ عَلَى الْأَسْرَارِ ، لِأَنَّ الْكِتَابَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مَتَحَلِّ الْقَوْمِ ، وَلَا التَّرْسِيلُ يِلْسَانِهِمْ ، فَلَمْ يُشْرَطْ فِيهِ النَّسَبُ .

وَاحْتِاجَ السُّلْطَانِ لِاتِّسَاعِ مُلْكِهِ وَكَثْرَةِ الْمُرْتَقِينَ بِدَارِهِ إِلَى قَهْرْمَانٍ خَاصٍ بِدَارِهِ ، فِي أَحْوَالِهِ يُجْرِيهَا عَلَى قَدْرِهَا وَتَرْتِيبِهَا مِنْ رِزْقٍ وَعَطَاءٍ وَكُسُوفَةٍ وَتَقَفَةٍ فِي الْمَطَابِخِ وَالْأَصْطِلَاتِ وَغَيْرِهِمَا ، وَحَضَرِ الذَّخِيرَةِ ، وَتَنْفِذِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْجِبَايَةِ ، فَمَخْصُوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ ، وَرَبِّمَا أَضَافُوا إِلَيْهِ كِتَابَةَ الْعَلَامَةِ عَلَى السَّجَلَاتِ ، إِذَا اتَّفَقَ أَنَّهُ يُحْسِنُ صِنَاعَةَ الْكِتَابَةِ ، وَرَبِّمَا جَعَلُوهُ لِعَمَلِهِ .

وَأَسْتَمَرَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَحَجَبَ السُّلْطَانُ نَفْسَهُ عَنِ النَّاسِ فَصَارَ هَذَا
الْحَاجِبُ وَاسِطَةً بَيْنَ النَّاسِ ، وَبَيْنَ أَهْلِ الرَّتَبِ كُلِّهِمْ ، ثُمَّ جُمِعَ لَهُ آخِرُ
الدَّوْلَةِ السَّيْفُ وَالْحَرْبُ ، ثُمَّ الرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ ، فَصَارَتِ الْخُطَّةُ أَرْفَعَ الرَّتَبِ
وَأَوْعَىا لِلْخِطَطِ .

ثُمَّ جَاءَ الْإِسْتِبْدَادُ وَالْحَجْرُ مُدَّةً مِنْ بَعْدِ السُّلْطَانِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْهُمْ ،
ثُمَّ اسْتَبَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ حَفِيدُهُ السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَذْهَبَ أَثَارُ
الْحَجْرِ وَالْإِسْتِبْدَادِ بِإِذْهَابِ خُطَّةِ الْحِجَابَةِ الَّتِي كَانَتْ سُلْمًا إِلَيْهِ ، وَبَاشَرَ
أُمُورَهُ كُلَّهَا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ . وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ رَنَانَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي مَرَيْنَ ، فَلَا أَثَرَ لِاسْمِ
الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ . وَأَمَّا رِيَاسَةُ الْحَرْبِ وَالْمَسَافِرِ فِيهِ لِلْوَزِيرِ ، وَرَبَّةُ الْقَلَمِ
فِي الْحُسْبَانِ وَالرَّسَائِلِ رَاجِعَةٌ إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا ، وَإِنْ اخْتَصَّتْ
بِبَعْضِ الْبُيُوتِ الْمُصْطَنِعِينَ فِي دَوْلَتِهِمْ ، وَقَدْ تَجَمَّعَ عِنْدَهُمْ ، وَقَدْ تَفَرَّقَ .

وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحَجَبُهُ عَنِ الْعَامَّةِ ، فَسَهِيَ رُبَّةٌ عِنْدَهُمْ ، فَيُسَمَّى
صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمَزَارِ ، وَمَعْنَاهُ ، الْمُقَدَّمُ عَلَى الْجُنَادَةِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ
السُّلْطَانِ فِي تَنْفِيذِ أَوْامِرِهِ ، وَتَصْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ ، وَإِنْزَالِ سَطَوَاتِهِ ، وَحِفْظِ
الْمُعْتَقَلِينَ فِي سُجُونِهِ ، وَالْعَرِيفُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ . فَالْبَابُ لَهُ وَأَخَذَ النَّاسُ
بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْعَامَةِ رَاجِعُ إِلَيْهِ ، فَكَانَتْهَا وَدَارَةُ صُغْرَى .

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِّ ، فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَابِ وَلَا تَمَيِّزِ الْخَطَطِ ، لِيَدَاوَةَ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا ، وَإِنَّمَا يَخْصُونَ بِاسْمِ الْحَاجِبِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ مُتَقَدِّدَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ ، كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ ، وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْحَبَّانَ وَالسَّجِلَّ كَمَا كَانَ فِيهَا . حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي تَبِعِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهَا .

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْقَهْدِ ، فَأَلْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحَسْبَانِ وَتَنْفِيدِ حَالِ السُّلْطَانِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْعَالِيَةِ بِسْمُوْنِهِ بِالْوَكِيلِ . وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلُ . وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى السَّجَلَاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خُطَّةُ الْعَلَامَةِ كَمَا لَفِيهِمْ مِنَ الدُّوَلِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ ، فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضِعُ لِحَاكِمٍ مِنْ أَهْلِ الشُّوَكَةِ ، وَهُمْ التُّرْكُ يُنْفِذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهَذِهِ الْوُظَيْفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيفَةِ النِّيَابَةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَامَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَلِكُلِّ نَائِبِ التَّوَلِيَةِ وَالْعَزَلُ فِي بَعْضِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْأَحْيَانِ ، وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيُسَبِّتُهَا وَتُنْفَذُ أَمْرُهُ كَمَا تُنْفَذُ الْمَرَاسِمُ السُّلْطَانِيَّةُ ، وَكَانَ لَهُ النِّيَابَةُ الْمُطْلَقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ . وَلِكُلِّ حَاجِبِ الْحُكْمِ فَقَطْ فَسَيَّ طَبَقَاتِ الْعَامَةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ السَّرَافِعِ إِلَيْهِمْ ، وَإِجْبَارَ مَنْ أَبِي الْإِنْقِيَادَ لِلْحُكْمِ ، وَطَوْرُهُمْ تَحْتَ طَوْرِ النِّيَابَةِ . وَالْوَزِيرُ فِي

هَوَلَةُ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جِزْيَةٍ ، ثُمَّ فِي تَصْرِيْفِهَا فِي الْإِنْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ الْحِرَابَاتِ الْمُقَدَّرَةِ ، وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ السَّوْلِيَّةُ وَالْعَزْلُ فِي سَائِرِ الْعُمَالِ الْمُبَاشِرِينَ لَهُ هَذِهِ الْجَبَايَةِ وَالتَّنْفِيزُ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ ، وَتَبَيَّنَ أَصْنَافُهُمْ .

وَمِنْ عَوَالِدِهِمْ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَزِيرُ مِنْ صِنْفِ الْقَبِطِ الْقَائِمِينَ عَلَى دِيْوَانِ الْحُسْبَانِ وَالْجَبَايَةِ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِذَلِكَ فِي مِصْرَ مُنْذُ عَصُورٍ قَدِيمَةٍ . وَقَدْ يُولِّئُهَا السُّلْطَانُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ لِأَهْلِ الشُّوْكَةِ مِنْ رِجَالَاتِ التُّرْكِ أَوْ أَبْنَائِهِمْ عَلَى حَسَبِ الدَّاعِيَةِ لِذَلِكَ . وَاللَّهُ مُدَبِّرُ الْأُمُورِ ، وَمُصَرِّفُهَا بِحِكْمَتِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ .

(ديوان الاعمال والجبايات)

إِعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْوَظَيْفَةَ مِنَ الْوُظَايِفِ الضَّرُورِيَّةِ لِلْمَلِكِ ، وَهِيَ الْفِيَامُ عَلَى أَعْمَالِ الْجَبَايَاتِ وَحِفْظُ حُقُوقِ الدَّوْلَةِ فِي الدَّخْلِ وَالْخُرُجِ وَإِحْصَاءُ الْعَسَاكِرِ بِأَسْمَائِهِمْ وَتَقْدِيرُ أَرْزَاقِهِمْ وَصَرْفُ أُعْطِيَاتِهِمْ فِي إِبَائَاتِهَا^(١) وَالرَّجُوعُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْقَوَانِينِ الَّتِي يُرَتَّبُهَا^(٢) قَوْمُهُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ ،

(١) فِي مَوَاعِيدِهَا .

(٢) يَنْتَهِا .

وَقَهَّارِمَةً^(١) الدَّوْلَةِ ، وَهِيَ كُلُّهَا مَسْطُورَةٌ ، فِي كِتَابٍ شَاهِدٍ بِتَفَاصِيلِ ذَلِكَ فِي الدُّخُلِ وَالْخُرُجِ ، مَبْنَى عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ الْحِسَابِ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا الْمَهَرَّةُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ الْكِتَابُ بِالْأَدْيَانِ ، وَكَذَلِكَ مَكَانُ جُلُوسِ الْعُمَالِ الْمُبَاشِرِينَ لَهَا .

وَيُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ أَنْ كَسَرَى نَظَرَ يَوْمًا إِلَى كِتَابِ دِيَوَانِهِ ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَأَنَّهُمْ يُجَادِلُونَ ، فَقَالَ : دِيَوَانُهُ أَيْ مَجَانِينُ بِلُغَةِ الْفَرَسِ ، فَسَمَّى مَوْضِعَهُمْ بِذَلِكَ ، وَحُدِفَتِ الْهَاءُ لِكَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ تَخْفِيفًا فَقِيلَ دِيَوَانٌ ، ثُمَّ نُقِلَ هَذَا الْإِسْمُ إِلَى كِتَابِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْقَوَانِينِ وَالْحِسَابَاتِ .

وَقِيلَ إِنَّهُ اسْمٌ لِلشَّيَاطِينِ بِالْفَارَسِيَّةِ ، سُمِيَ الْكِتَابُ بِذَلِكَ لِسُرْعَةِ نَفْذِهِمْ فِيهِمْ الْأُمُورَ ، وَوُقُوفِهِمْ عَلَى الْجَلِيِّ مِنْهَا وَالْخَفِيِّ ، وَجَمْعِهِمْ لِمَا شَدَّ وَتَفَرَّقَ ، ثُمَّ نُقِلَ إِلَى مَكَانِ جُلُوسِهِمْ لِتِلْكَ الْأَعْمَالِ . وَعَلَى هَذَا فَيَتَنَاولُ اسْمُ الدِّيَوَانِ كِتَابَ الرِّسَالِ ، وَمَكَانَ جُلُوسِهِمْ بَابَ السُّلْطَانِ عَلَى مَا يَأْتِي بَعْدُ .

وَقَدْ تَفَرَّدَ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ بِنَاطِرٍ وَاحِدٍ ، يَنْظُرُ فِي سَائِرِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ ،

(١) جمع قهريمان .. وهو الخادم الخاص . وفيد السياق أن هؤلاء القهارة كانوا بمثابة الخبراء في ترتيب تلك القوانين .

وَقَدْ يُفْرَدُ كُلُّ حَيْفٍ مِنْهَا بِنَظَرٍ ، كَمَا يُفْسَدُ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ النَّظَرُ فِي
الْعَسَاكِرِ وَإِنْفَاعَاتِهِمْ وَحَسْبَانِ أُعْطِيَتِهِمْ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ مُصْطَلَحِ
الدَّوْلَةِ وَمَا قَرَّرَهُ أَوْلَاؤُهَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ ، إِنَّمَا تَحْدُثُ فِي الدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ الْقَلْبِ
وَالْاِسْتِيْلَاءِ ، وَالنَّظَرُ فِي أَعْطَافِ الْمُلْكِ وَقُنُونِ التَّمْهِيدِ .

وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الدِّيَوَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يُقَالُ لِسَبَبِ
مَا لِيَ أَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ، فَاسْتَكْثَرُوهُ وَتَعَبُوا فِي قِسْمِهِ ،
فَسَمَوْا إِلَى إِحْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَضَبْطِ الْعَطَاءِ وَالْحَقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ
بِالدِّيَوَانِ وَقَالَ رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ يَدُونُونَ ، فَقِيلَ مِنْهُ عُمَرُ .

وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ الْهَرَمُزَانُ ^(١) لَمَّا رَأَاهُ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ بِغَيْرِ دِيَوَانٍ ،
فَقِيلَ لَهُ ، وَمَنْ يَعْلَمُ يَغِيثُ مَنْ يَغِيثُ مِنْهُمْ ؟ فَإِنْ مَنْ تَخَلَّفَ أَخْلَ بِمَكَانِهِ .
وَأِنَّمَا يَضْبُطُ ذَلِكَ الْكِتَابُ . فَأَنْبَتَ لَهُمْ دِيوَانًا . وَسَأَلَ عُمَرُ عَنْ اسْمِ
الدِّيَوَانِ فَعَبَّرَ لَهُ ، وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمْرَ عَقِيلَ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَمَخْرَمَةَ
ابْنِ تَوَاقِلٍ وَجَبْرِ بْنِ مَطْعِمٍ ، وَكَانُوا مِنْ كِتَابِ قُرَيْشٍ ، فَكَتَبُوا دِيوَانًا
الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، عَلَى تَرْتِيبِ الْأَنْسَابِ مُبْتَدَأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) يلقب به الكبير من ملوك المعجم .

، وَمَا بَعْلَمَا الْأَقْرَبُ ، فَلَا اقْرَبُ . هَكَذَا كَانَ ابْتِدَاءُ دِيوَانِ الْجَيْشِ . وَرَوَى
الزُّهْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةِ عَشْرِينَ .

وَأَمَّا دِيوَانُ الْخَوَاجِ وَالْجَبَايَاتِ فَبَقِيَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ
مِنْ قَبْلُ : دِيوَانُ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ ؛ وَدِيوَانُ الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ ؛ وَكُتِبَ
الدَّوَاوِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ .

وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاسْتَحَالَ الْأَمْرُ مُلْكًا ، وَانْتَقَلَ الْقَوْمُ
مِنْ غَضَاضَةِ الْبِدَاوَةِ إِلَى رَوْتَقِ الْحَضَارَةِ ، وَمِنْ سُلْجَةِ الْأُمِّيَّةِ إِلَى حُلِيِّ
الْكِتَابَةِ ، وَظَهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالْحِسْبَانِ ، فَأَمَرَ
عَبْدُ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ سَعْدٍ وَآلِي الْأُرْدُنِّ لِعَهْدِهِ ، أَنْ يَنْقُلَ دِيوَانُ الشَّامِ
إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةِ مِنْ يَوْمِ ابْتِدَائِهِ ، وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرُحُونُ كَاتِبُ عَبْدِ
الْمَلِكِ ، فَقَالَ لِكُتَّابِ الرُّومِ اطْلُبُوا الْعَيْشَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، فَقَدْ
قَطَعَهَا اللَّهُ عَنْكُمْ .

وَأَمَّا دِيوَانُ الْعِرَاقِ فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَكَانَ
يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ ، وَلَقِّنَ ذَلِكَ عَنْ رَادَّانَ قُرُوخَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ
قَبْلَهُ ، وَلَمَّا قُتِلَ رَادَّانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ اسْتَخْلَفَ الْحَجَّاجُ
صَالِحًا هَذَا مَكَانَهُ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقُلَ الدِّيَوَانَ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ
، وَدَغِمَ لِذَلِكَ كُتَّابَ الْفَرَسِ . وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يُحْيَى يَقُولُ لِلَّهِ دُرٌّ
صَالِحٍ مَا أَعْظَمَ مِثُّهُ عَلَى الْكُتَّابِ .

ثُمَّ جُعِلَتْ هَذِهِ الْوِظِيفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ
النَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ كَانَ بَنِي بَرْمَكٍ ، وَبَنِي سَهْلٍ بْنِ نُوبِخْتٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ
وُزَرَاءِ الدَّوْلَةِ .

وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ هَذِهِ الْوِظِيفَةُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِمَّا يَخْتَصُّ
بِالْجَيْشِ ، أَوْ يَتَّصِلُ بِالْمَالِ فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ ، وَتَمْيِيزِ السَّوَاحِي بِالصِّلَحِ
وَالْعُنُوتِ ، وَفِي تَقْلِيدِ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ لِمَنْ يَكُونُ ، وَشُرُوطِ النَّظَرِ فِيهَا
وَالْكَاتِبِ ، وَقَوَائِنِ الْحُسْبَانَاتِ ، فَأَمْرٌ رَاجِعٌ إِلَى كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ ،
وَهِيَ مَسْطُورَةٌ هَتَّاكَ ، وَلَيْسَتْ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا ، وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِيهَا مِنْ
حَيْثُ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ الْكَلَامِ فِيهِ . وَهَذِهِ الْوِظِيفَةُ جُزْءٌ
عَظِيمٌ مِنَ الْمُلْكِ ، بَلْ هِيَ ثَالِثَةٌ أَرْكَانِهِ لِأَنَّ الْمُلْكَ لَا يَدُورُ لَهُ مِنَ الْجَنْدِ
وَالْمَالِ وَالْمُخَاطَبَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ ، فَاحْتِاجَ صَاحِبِ الْمُلْكِ إِلَى الْأَعْوَانِ فِي
أَمْرِ السَّيْفِ وَأَمْرِ الْقَلَمِ وَأَمْرِ الْمَالِ ، فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُهَا لِذَلِكَ بِجُزْءٍ مِنْ رِيَاسَةِ
الْمُلْكِ . وَكَسَلِ ذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطُّوَائِفِ
بَيْنَهُمْ .

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ فَكَانَ صَاحِبُهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ ،
يَسْتَقِلُّ بِالنَّظَرِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَضَبْطِهَا ، وَتَعَقُّبِ نَظَرِ الْوَلَاةِ

وَالْعُمَالِ فِيهَا ، ثُمَّ تَتَفَيَّحُهَا عَلَى قَدَرِهَا ، وَفِي مَوَاقِفِهَا ، وَكَانَ يُعْرِفُ بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ .

وَكَانَ رَبِّمَا يَلِيهَا فِي الْجِهَاتِ غَيْرُ الْمُوَحِّدِينَ مِمَّنْ يُحْسِنُهَا .

وَلَمَّا اسْتَبَدَّ بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِسِيَّةَ ، وَكَانَ شَأْنُ الْجَالِيَةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْيُتُوتَاتِ ، وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ فِي الْأَنْدَلُسِ ، مِثْلُ بَنِي سَعِيدٍ ، أَصْحَابِ الْقَلْعَةِ ، جَوَارِ غِرْنَاطَةَ الْمَعْرُوفِينَ بَيْنِي أَبِي الْحَسَنِ ، فَاسْتَكْفُوا بِهِمْ فِي ذَلِكَ ، وَجَعَلُوا لَهُمُ النَّظَرَ فِي الْأَشْغَالِ كَمَا كَانَ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَدَالُوا^(١) فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُوَحِّدِينَ ، ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِهَا أَهْلُ الْحُسْبَانِ وَالْكَتَّابِ ، وَخَرَجَتْ عَنِ الْمُوَحِّدِينَ ثُمَّ لَمَّا اسْتَغْلَظَ أَمْرُ الْحَاجِبِ ، وَنَفَذَ أَمْرَهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُئُونِ الدَّوْلَةِ ، تَعَطَّلَ هَذَا الرُّسْمُ وَصَارَ صَاحِبُهُ مَرُوسًا لِلْحَاجِبِ ، وَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ النِّجَابَةِ ، وَذَهَبَتْ تِلْكَ الرِّيَاسَةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُ فِي الدَّوْلَةِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي مُرَيْنَ ، لِهَذَا الْعَهْدِ فَحُسْبَانُ الْعَطَاءِ وَالْخَرَاجِ مَجْمُوعٌ لِوَاحِدٍ ، وَصَاحِبُ هَذِهِ الرُّتْبَةِ هُوَ الَّذِي يُصَحِّحُ الْحُسْبَانَاتِ كُلَّهَا ، وَيَرْجِعُ إِلَى دِيَوَانِهِ وَيَنْظُرُهُ مُعَقَّبٌ بِنَظَرِ السُّلْطَانِ ، أَوْ الْوَزِيرِ ، وَخَطُهُ مُعْتَبَرٌ فِي صِحَّةِ الْحُسْبَانِ فِي الْخَارِجِ وَالْعَطَاءِ .

(١) تَدَلَّوْهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ .

وَأَمَّا هَذِهِ الرَّتْبَةُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ ، فَمُتَنَوِّعَةٌ . وَصَاحِبُ دِيْوَانِ الْعَطَاةِ يُعْرَفُ بِنَاطِرِ الْجَيْشِ وَصَاحِبُ الْمَالِ مَخْصُوصٌ بِاسْمِ الْوَزِيرِ ، وَهُوَ النَّاطِرُ فِي دِيْوَانِ الْجَبَايَةِ الْعَامَّةِ لِلدَّوْلَةِ ، وَهُوَ أَعْلَى رَتْبِ النَّاطِرِينَ فِي الْأَمْوَالِ ، لِأَنَّ النَّظَرَ فِي الْأَمْوَالِ عِنْدَهُمْ يَتَنَوَّعُ إِلَى رَتْبٍ كَثِيرَةٍ ، لِإِنْفِسَاحِ دَوْلَتِهِمْ ، وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِمْ ، وَاتِّسَاعِ الْأَمْوَالِ وَالْجَبَايَاتِ عَنْ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِضَبْطِهَا الْوَاحِدُ مِنَ الرِّجَالِ ، وَلَوْ بَلَغَ فِي الْكِفَايَةِ مَبَالِغُهُ . فَتَعَيَّنَ لِلنَّظَرِ الْعَامِ مِنْهَا هَذَا الْمَخْصُوصُ بِاسْمِ الْوَزِيرِ .

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَدِيفُ لِعَوْلَى مِنْ مَوَالِي السُّلْطَانِ وَأَهْلِ عَصِيَّتِهِ وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ فِي الدَّوْلَةِ يَرْجِعُ نَظَرُ الْوَزِيرِ إِلَى نَظَرِهِ وَيَجْتَهِدُ جُهْدُهُ فِي مَتَابَعَتِهِ ، وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ أَسْتَاذُ الدَّوْلَةِ ، وَهُوَ أَحَدُ الْأَمْرَاءِ الْأَكْبَارِ فِي الدَّوْلَةِ مِنَ الْجُنْدِ ، وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ . وَيَتَّبِعُ هَذِهِ الْخُطَّةَ خُطَطُ عِنْدَهُمْ أُخْرَى كُلُّهَا رَاجِعَةً إِلَى الْأَمْوَالِ وَالْحُسْبَانِ ، مَقْصُورَةُ النَّظَرِ إِلَى أُمُورٍ خَاصَّةٍ مِثْلِ نَاطِرِ الْخَاصِّ وَهُوَ الْمُبَاشِرُ لِأَمْوَالِ السُّلْطَانِ الْخَاصَّةِ بِهِ مِنْ إِفْطَاعَاتِهِ أَوْ سَهْمَانِهِ^(١) مِنْ أَمْوَالِ الْخَرَاجِ وَيَلَادِ الْجَبَايَةِ ، مِمَّا لَيْسَ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّةِ ، وَهُوَ تَحْتَ يَدِ الْأَمِيرِ أَسْتَاذِ الدَّارِ .

وَإِنْ كَانَ الْوَزِيرُ مِنَ الْجُنْدِ فَلَا يَكُونُ لِأَسْتَاذِ الدَّارِ نَظَرٌ عَلَيْهِ . وَنَاطِرُ

(١) جمع سهم .

الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من ممالكه المسمى خازن الدار
لاختصاصه وتوظيفهما بمال السلطان الخاص .

هذا بيان هذه الخططة ، بدولة الترك بالمشرق ، بعد ما قدمناه من
أمرها بالمغرب . والله مصروف الأمور لأرب غير .

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها
رأساً كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذوا تهذيب الحضارة
ولا استحكام الصنائع .

وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية ، شأن اللسان العربي ،
والبلاغة في العبارة عن المقاصد ، فصارت الكتاب تؤدي كنه الحاجة بأبلغ
من العبارة اللسانية في الأكثر . وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسيه ،
ومن عظماء قبيله ، كما كان للخلفاء وأمرأه الصحابة بالشام والعراق لعظم
أمانتهم وخلوص أسرارهم .

فلما فسد اللسان وصارت صناعة اختص بمن يحسنه . وكانت عند بني
العباس رقيصة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقه ، ويكتب في آخرها
اسمه ويختتم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان

أَوْشَارُهُ يُخَمَسُ فِي طِينٍ أَحْمَرَ مُذَابٍ بِالْمَاءِ وَيُسَمَّى طِينَ الْخَتَمِ ، وَيُطَبَّعُ بِهِ عَلَى طَرَفِي السَّجَلِ عِنْدَ طَيْهِ وَالصَّاقِ .

ثُمَّ صَارَتِ السَّجَلَاتُ مِنْ بَعْدِهِمْ تُصَدَّرُ بِاسْمِ السُّلْطَانِ ، وَيَضَعُ الْكَاتِبُ فِيهَا عَلَامَتَهُ أَوَّلًا أَوْ آخِرًا ، عَلَى حَسَبِ الْإِخْتِيَارِ فِي مَحَلِّهَا وَفِي لَفْظِهَا . ثُمَّ قَدْ تَنَزَّلَ هَذِهِ الْخِطَّةُ بِارْتِفَاعِ الْمَكَانِ عِنْدَ السُّلْطَانِ لِغَيْرِ صَاحِبِهَا ، مِنْ أَهْلِ الْمَرَاتِبِ فِي الدَّوْلَةِ ، أَوْ اسْتِئْذَانِ وَزِيرٍ عَلَيْهِ ، فَتَقْصِرُ عَلَامَةُ هَذَا الْكَاتِبِ مُلْفَأَةً الْحُكْمِ بِعَلَامَةِ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ ، يَسْتَدِلُّ بِهَا فَيَكْتُبُ صُورَةَ عَلَامَتِهِ الْمَعْنُودَةِ ، وَالْحُكْمُ لِعَلَامَةِ ذَلِكَ الرَّئِيسِ ، كَمَا وَقَعَ آخِرَ الدَّوْلَةِ الْحَقِصِيَّةِ ، لَمَّا ارْتَفَعَ شَأْنُ الْحِجَابَةِ ، وَصَارَ أَمْرُهَا إِلَى التَّفْوِيزِ ثُمَّ الْإِسْتِئْذَانِ صَارَ حُكْمُ الْعَلَامَةِ الَّتِي لِلْكَاتِبِ مَلْعَى وَصُورَتُهَا ثَابِتَةً ، إِتِّبَاعًا لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِهَا . فَصَارَ الْحَاجِبُ يَرْسِمُ لِلْكَاتِبِ إِمضَاءَ كِتَابِهِ ذَلِكَ بِخِطِّ يَصْنَعُهُ وَيَخْتَارُ لَهُ مِنْ صِيغِ الْإِنْفَادِ مَا شَاءَ ، فَيَاْتِمُرُ الْكَاتِبُ لَهُ ، وَيَضَعُ الْعَلَامَةَ الْمُعْتَادَةَ ، وَقَدْ يَخْتَصُّ السُّلْطَانُ بِنَفْسِهِ ذَلِكَ إِذَا كَانَ مُسْتَدِلًّا بِأَمْرِهِ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ ، فَيَرْسِمُ الْأَمْرَ لِلْكَاتِبِ لِيَضَعَ عَلَامَتَهُ .

وَمِنْ خُطَطِ الْكِتَابَةِ السُّوْفِيَّةِ ، وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ فِي مَجَالِسِ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ، وَيُوقَّعُ عَلَى الْقُصَصِ الْمَرْقُوعَةِ إِلَيْهِ أَحْكَامُهَا وَالْفُتُوحَاتِ فِيهَا مُتَلَفَأَةً مِنَ السُّلْطَانِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْلَغِهِ . فَإِذَا أَنْ

تَصَدَّرَ كَذَلِكَ ، وَإِذَا أَنْ يَحْدُوَ السَّكَّابِ عَلَى مِثَالِهَا فَبِئْسَ سَجِلٌ يَكُونُ بِيَدِ
صَاحِبِ الْقِصَّةِ . وَيَحْتَاجُ الْمُوقَّعُ إِلَى عَارِضَةٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا
تَوْقِيعُهُ .

وَقَدْ كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يُوقَّعُ فِي الْقِصَصِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ ،
وَيَرْمِي بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا ، فَكَانَتْ تَوْقِيعَاتُهُ يَتَنَافَسُ الْبُلْغَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا
لِللُّوْقُوفِ فِيهَا عَلَى أَسَالِبِ الْبَلَاغَةِ وَقَتُونَهَا ، حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تُبَاعُ كُلُّ
قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ ، وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الدُّوَلِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْخُطَّةِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَخَيَّرَ مِنْ أَرْقَعَ طَبَقَاتِ
السَّنَاسِ وَأَهْلِ الْمُرُوءَةِ وَالْحِشْمَةِ مِنْهُمْ وَزِيَادَةِ الْعِلْمِ وَعَارِضَةِ الْبَلَاغَةِ ، فَإِنَّهُ
مُعَرَّضٌ لِلنَّظَرِ فِي أَصُولِ الْعِلْمِ لِمَا يَغْرِضُ فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمَقَاصِدِ
أَحْكَامِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَشْرَةُ الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْأَدَابِ
وَالْتَخَلُّقِ بِالْفَضَائِلِ مَعَ مَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ فِي التَّرْسِيلِ وَتَطْيِيقِ مَقَاصِدِ الْكَلَامِ
مِنَ الْبَلَاغَةِ وَأَسْرَارِهَا .

وَقَدْ تَكُونُ الرَّتَبَةُ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ مُسْتَنَدَةً إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ لِمَا
يَقْتَضِيهِ طَبِيعُ الدَّوَلَةِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْ مُعَانَاةِ الْعُلُومِ لِأَجْلِ سَدَاجَةِ الْعَصِيَّةِ ،
فَيَخْتَصُّ السُّلْطَانُ أَهْلَ عَصِيَّتِهِ بِخُطْطِ دَوْلَتِهِ ، وَسَائِرِ رَتَبِهِ ، فَيَقْلُدُ الْمَالِ
وَالسَّيْفَ وَالْكِتَابَةَ مِنْهُمْ . فَأَمَّا رَتَبَةُ السَّيْفِ فَتَسْتَفْنِي عَنْ مُعَانَاةِ الْعِلْمِ . وَأَمَّا

المَالُ والكتابة فيضطر إلى ذلك لبلاغة في هذه وَالْحُبَّانُ في الأخرى ،
فَيَخْتَارُونَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ ، وَيَقْلُتُونَهُ . إِلَّا أَنَّهُ
تَكُونُ^(١) يَدُ آخَرَ مِنْ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ غَالِبَةً عَلَى يَدِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ مُتَصَرِّقًا عَنْ
نَظَرِهِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالشَّرْقِ . فَإِنَّ الْكِتَابَةَ عِنْدَهُمْ وَإِنْ
كَانَتْ لِصَاحِبِ الْإِنْشَاءِ ، إِلَّا أَنَّهُ تَحْتَ يَدِ أَمِيرٍ مِنْ أَهْلِ عَصِيَّةِ السُّلْطَانِ ،
يُعْرَفُ بِالِدَوْدِيَارِ . وَتَعْرِيلُ السُّلْطَانِ وَوُثُوقُهُ بِهِ وَأَسْتِثْنَاهُ^(٢) فِي غَالِبِ
أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ ، وَتَعْوِيلُهُ عَلَى الْآخِرِ فِي أَحْوَالِ الْبَلَاغَةِ ، وَتَطْلِيْقِ الْمَقَاصِدِ
وَكَيْفَانِ الْأَسْرَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِهَا .

وَأَمَّا الشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي صَاحِبِ هَذِهِ الرُّتْبَةِ الَّتِي يُلَاحِظُهَا السُّلْطَانُ
فِي اخْتِيَارِهِ وَانْتِقَائِهِ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَأَحْسَنُ مِنْ اسْتَوْعَبِهَا
عَبْدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى الْكِتَابِ وَهِيَ :

« أَمَّا بَعْدُ حَقِّقْكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطِكُمْ وَوَقِّقْكُمْ
وَأَرَشِدْكُمْ . فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صُلُوكَاتِ
اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمُكْرَمِينَ أَصْنَافًا . وَإِنْ
كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً . وَصَرَّفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصَّنَاعَاتِ ، وَصَرُّوبِ

(١) في الأصل (لا تكون) بزيادة لا . وفيه مناقضة للمعنى . وقد حذفه د . وافى في
منشورته وهو الصواب .

(٢) اطمئنانه إليه .

الْمَحَاوِلِ ، إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ ، وَأَيَّابِ أَرْزَاقِهِمْ . فَجَعَلَكُمْ مَعَشَرَ
الْكِتَابِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمَرْءُوتِ وَالْعِلْمِ وَالرَّزَاةِ . يَكُمُ
يَنْتَظِمُ لِلْخِلَافَةِ مَحَاسِنُهَا ، وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا . وَيَنْصَحَاكُمْ يُصْلِحُ اللَّهُ
لِلْمَخْلُوقِ سُلْطَانَهُمْ ، وَتَعْمُرُ بُلْدَانَهُمْ . وَلَا يَسْتَفْنِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ ، وَلَا
يُوجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ . فَمَوْعِعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْعِعَ أَسْمَاعِهِمْ الَّتِي بِهَا
يَسْمَعُونَ ، وَأَبْصَارِهِم الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ ، وَالسِّيَرُ الَّتِي بِهَا يَنْطَقُونَ ،
وَالْيَدِ بِهِمُ الَّتِي بِهَا يَبْطِشُونَ . فَأَمْسَحَكُمْ اللَّهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ
صِنَاعَتِكُمْ ، وَلَا تَزَعْ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ . وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ
أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى اجْتِمَاعِ خِلَاكِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ وَخِصَالِ
الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ .

« أَيُّهَا الْكِتَابُ : إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ
فَإِنَّ الْكِتَابَ يَحْتَاجُ فِي نَفْسِهِ ، وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَتَّقِي بِهِ فِي
مُهَيِّمَاتِ أُمُورِهِ ، أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ ، فَهِيمًا فِي مَوْضِعِ
الْحُكْمِ ، مِقْدَامًا فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ ، مُحْجِمًا فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ ، مُؤَثِّرًا
لِلْعَقَابِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، كَثُومًا لِلْأَسْرَارِ ، وَفِيًّا عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، عَالِمًا
بِمَا يَأْتِي مِنَ النَّوَائِلِ ، يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا ، وَالطَّرَاقَ فِي أَمَاكِنِهَا . قَدْ
نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ فَأَحْكَمَهُ ، وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْهُ أَخَذَ مِنْهُ بِمِقْدَارِ
مَا يَكْتَفِي بِهِ . يَعْرِفُ بِغَيْرِيزَةٍ عَقْلَهُ وَحُسْنَ أَدَبِهِ وَفَضْلَ تَجَرُّبَتِهِ مَا يَرُدُّ

عَلَيْهِ قَبْلَ رُودِهِ وَعَاقِبَةُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ ؛ فَيُعِدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عِدَّتَهُ
وَعَتَادَهُ وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ ، وَعَادَتَهُ .

« فَتَنَافَسُوا يَا مَعْشَرَ الْكُتَّابِ فِي صُنُوفِ الْأَدَابِ . وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَأَبْدَأُوا بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْفَرَائِضِ ، ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا ثِقَافٌ ^(١)
الْسِّنَتُكُمْ ، ثُمَّ أَجْبَدُوا الْخَطَّ ؛ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ كُتُبِكُمْ ، وَارَوْا الْأَشْعَارَ ،
وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا ، وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا ؛ فَإِنَّ
ذَلِكَ مُعَيْنٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمْمُكُمْ ؛ وَلَا تَفْضَحُوا النَّظَرَ فِي
الْحِسَابِ ، فَإِنَّهُ قِوَامُ كِتَابِ الْخُرَاجِ .

« وَارْعَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيهَا وَدَنِيهَا وَسَفَافِ الْأُمُورِ
وَمَحَافِرِهَا فَإِنَّهَا مِدْلَةٌ لِلرَّقَابِ مُفِيدَةٌ لِلْكِتَابِ . وَتَزْهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَاءِ
وَأَرَابُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ ، وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْجِهَالَاتِ .

« وَلِيَأْكُمُ وَالْكِبَرُ وَالسُّخْفُ وَالْعِظَمَةُ ، فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ
إِحْتَةٍ ، وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ
أَلَيُّ لَأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنَّبْلِ مِنْ سَلَفِكُمْ .

« وَإِنْ نَبَا الزَّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَاعْطِفُوا عَلَيْهِ وَأَسْوُهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ
حَالُهُ ، وَيَتَوَبَّ إِلَيْهِ أَمْرُهُ . وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الْكِبَرُ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ

(١) ومبلة تقرؤها . والثقاف في الأصل الآلة التي تسوى بها الرماح .

إِخْوَانِهِ ، فُزِّرُوهُ وَعَظَّمُوهُ وَشَارِرُوهُ وَاسْتَظْهَرُوا بِفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ وَقَلْبِهِ
مَعْرِفَتِهِ .

« وَلَكِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ اصْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ لِيَوْمِ حَاجَتِهِ
إِلَيْهِ أَحَاطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ . فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مُحَمَدَةٌ فَلَا
يَصْرِفُهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ وَإِنْ عَرَضَتْ مَنَمَةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ .
وَلْيَحْذَرْ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَكَلَ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْحَالِ . فَإِنَّ الْعَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعَشَرَ
الْكِتَابِ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى الْقُرَاءِ ، وَهُوَ لَكُمْ أَسَدٌ مِنْهُمْ . »

« فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحَبَهُ مَنْ يَسْلُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا
يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ مِنْ وَقَائِهِ وَشُكْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ
وَعَيْبِهِ وَتَضْيِيقِهِ وَكَيْفَانِ سِرِّهِ وَتَلْيِيزِ أَمْرِهِ مَا هُوَ جَزَاءُ لِحَقِّهِ ، وَيُصَدِّقُ
ذَلِكَ بِفَعَالِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَالْاضْطِرَّارِ إِلَى مَا لَدَيْهِ . فَاسْتَشْعَرُوا
ذَلِكَ . وَفَقَّكُمْ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرِّخَاءِ وَالشَّدَّةِ وَالْحَرَمَانِ وَالْمَوَاسَاةِ
وَالْإِحْسَانِ وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ؛ فَنِعْمَتِ السَّيِّئَةِ هَذِهِ مِنْ وَسْمِ بِهَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ . »

« وَإِذَا وَلَّى الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْ صَيَّرَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ أَمْرًا
فَلْيُرَاقِبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيُؤَثِّرِ طَاعَتَهُ ، وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقًا ،
وَلْيَمُظْلَمِ مُمْسِكًا ، فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ إِلَيْهِ أَرْفَقَهُمْ بِعِيَالِهِ ، ثُمَّ

لِيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِمًا ، وَلِلْفُقَرَاءِ مُؤَقِّرًا ، وَلِلْبِلَادِ عَامِرًا ،
وَلِلرَّعِيَّةِ مُتَأَلِّفًا ، وَعَنْ أَذَاهُمْ مُتَخَلِّفًا ، وَلِيَكُنْ فِي مَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعًا حَكِيمًا ،
وَفِي سَجَلَاتِهِ خَرَّاجٌ وَاسْتِغْفَاءٌ حَقُوقِهِ رَفِيقًا .

« وَإِذَا صَحِبَ أَحَدَكُمْ رَجُلًا فَلْيَخْتِمْ خِلَافَتَهُ ، فَإِذَا عَرَفَ حُسْنَهَا
وَقُبْحَهَا ، أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الْحُسْنِ ، وَاحْتَالَ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ
مِنَ الْقُبْحِ بِالطَّيْفِ حِيلَةٍ وَأَجْمَلِ وَسِيلَةٍ . »

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ ، إِذَا كَانَ بِصَيْرًا بِسِيَاسَتِهَا التَّمَسَّ
مَعْرِفَةَ أَخْلَاقِهَا ، فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحًا^(١) لَمْ يَهْجُهَا ، إِذَا رَكِبَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ
شَبُوبًا^(٢) اتَّقَاهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شَرُّودًا تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ
رَأْسِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ حَرُورًا^(٣) قَمَعَ بِرَفْقٍ هَوَاهَا فَسَى طَرَفِهَا^(٤) ، فَإِنْ
اسْتَمَرَّتْ عَطَفَهَا يَسِيرًا فَيَسْلُسُ^(٥) لَهُ قِيَادَهَا . وَفِي هَذَا الْوَصْفِ مِنَ السِّيَاسَةِ
دَلَالٌ لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ وَجَرَّبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ .

« وَالكَاتِبُ بِفَضْلِ آدِيهِ وَشَرِيفِ صَنْعَتِهِ وَلَطِيفِ حِيلَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ

(١) كثيرة الرفس .

(٢) كثيرة رفع اليدين .

(٣) التي إذا استمر جريها وقفت ولم تستجب .

(٤) في ضربه لها .

(٥) يلين .

يُحَاوِرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَاطِرُهُ وَيُفْهَمُ عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سَطَوْتَهُ أَوْ لِسَى بِالرَّقِيقِ
لِصَاحِبِهِ وَنُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِ مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي لَا تُجِيرُ^(١) جَوَابًا
وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا وَلَا تَفْهَمُ خَطَابًا إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصِيرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا الرَّكَّابُ
عَلَيْهَا .

« أَلَا فَارْقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي النَّظَرِ وَاعْمَلُوا مَا أَمَكَنَّكُمْ فِيهِ مِنَ الرُّوبَةِ
وَالْفَكْرِ ، تَأْمَنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ ، مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ النَّبَوَّةَ وَالْإِسْتِقَالَ وَالْجَفْوَةَ ،
وَيَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافَقَةِ ، وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمَوَاحَاةِ وَالشَّفَقَةِ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ » .

« وَلَا يُجَاوِرَنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ
وَمَشْرَبِهِ وَبَنَاتِهِ وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فُنُونِ أَمْرِهِ قَدَرَ حَقِّهِ ؛ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا
فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفٍ صَنَعْتُمْ خِدْمَةً لِأَتَحْمِلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى
التَّقْصِيرِ وَحَفَظَهُ لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبَذِيرِ . وَاسْتَعِينُوا عَلَى
عَفَافِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتَهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ . وَاحْذَرُوا مِتَالِفَ
السَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِّ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ وَيُذْلَانِ الرِّقَابَ وَيَقْضَحَانِ
أَهْلَهُمَا وَسَيِّمَا الْكُتَّابِ وَأَرْيَابِ الْأَدَابِ » .

(١) لا ترد جوابًا .

« وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهٌ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَبِ (١)
 أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرِبَتُكُمْ ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّنْذِيرِ أَوْ صَحَّحَا
 مَحَجَّةً وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً ، وَأَحْمَلَهَا عَاقِبَةً . وَعَلِّمُوا أَنَّ لِلتَّنْذِيرِ أَفَّةً مُتْلَفَةً ،
 وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْقَازِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ . فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ
 مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِي مِنْ مَنْطِقِهِ ، وَلْيُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ ،
 وَكَيْبَاخُذَ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفِعْلِهِ وَمَدْفَعَةٌ لِلشَّاعِلِ عَنْ
 إِكْثَارِهِ . وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صِلَةِ تَوْفِيْقِهِ وَأَمْدَادِهِ بِتَسْذِيدِهِ مَخَافَةَ وَقُوعِهِ فِي
 الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِيَدَيْهِ وَعَقْلِهِ وَآدِبِهِ » .

« فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ قَائِلًا إِنْ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صُنْعَتِهِ
 وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ ، وَحُسْنِ تَنْذِيرِهِ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بِظَنِّهِ أَوْ
 مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ؛
 وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ » .

« وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ وَأَحْمَلُ لِعِبَاءِ التَّنْذِيرِ مِنْ
 مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ . فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي
 الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَأَى ظَهْرَهُ وَرَأَى أَنْ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَدُ
 فِي طَرِيقَتِهِ . وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ

(١) ما لم تجزوه .

تَنَازُهُ مِنْ غَيْرِ اخْتِرَارِ بَرَائِهِ وَلَا تَرْكِيَةِ لِنَفْسِهِ . وَلَا يُكَاثِرُ عَلَى أَخِيهِ أَوْ
تَظْلِيلِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرَتِهِ . وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ
بِالتَّوَاضُّعِ لِعَظَمَتِهِ ، وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ .

« وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : مَنْ تَلَزَمَهُ النَّصِيحَةُ
يَلْزَمُهُ الْعَمَلُ وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ ، وَغُرَّةُ^(١) كَلَامِهِ بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ
ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ ، وَتَمَمْتُهُ بِهِ . تَوَلَّأَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ
يَا مَعْشَرَ الطُّلَبَةِ وَالْكُتُبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ؛ فَإِنْ
ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(الشَّرْطَةُ) : وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَفْرِيقَةِ الْحَاكِمِ ، وَفِي
دَوْلَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ صَاحِبَ الْمَدِينَةِ ، وَفِي دَوْلَةِ السُّرُكِ الْوَالِي . وَهِيَ
وُظُفَةُ مَرْوُوسَةٌ لِصَاحِبِ السَّيْفِ فِي الدَّوْلَةِ ، وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا
بَعْضُ الْأَحْيَانِ .

وَكَانَ أَصْلُ وَضْعِهَا فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِي
حَالِ اسْتِبْدَادِهَا أَوَّلًا ، ثُمَّ الْحُدُودَ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا ، فَإِنَّ التُّهَمَ الَّتِي تَعْرِضُ
فِي الْجَرَائِمِ لَأَنْتَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا وَلِكُلِّ سِيَاسَةِ النِّظَرِ فِي
اسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِقْرَارِ يُكْرِهُهُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا احْتَمَّتْ بِهِ الْفَرَائِنُ لِمَا

(١) احسن ما فيه .

تُوجِبُهُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ . فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهِ هَذَا الْاسْتِئْذَانُ وَبِاسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ الْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ الشَّرْطَةِ . وَرَبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ السُّنْظَرَ فِي الْحُدُودِ وَالْأَدْمَاءِ بِإِطْلَاقٍ وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي ، وَتَزَوَّهُوا هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوهَا كِبَارُ الْقَوَادِ وَعُظَمَاءُ الْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ .

وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ التَّنْفِيزِ فِي طَبَقَاتِ النَّاسِ إِنَّمَا كَانَ حُكْمُهُمْ عَلَى الْأَدْمَاءِ وَأَهْلِ الرَّيْبِ ، وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِي الرِّعَاعِ وَالْفُجَّعَةِ .

ثُمَّ عَظُمَتْ نَبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَنُوعَتْ إِلَى شَرْطَةِ كُبْرَى وَشَرْطَةِ صُغْرَى . وَجُعِلَ حُكْمُ الْكُبْرَى عَلَى الْخَاصَّةِ وَالْأَدْمَاءِ وَجُعِلَ لَهُ الْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الظُّلُمَاتِ ، وَعَلَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِ ؛ وَجُعِلَ صَاحِبُ الصُّغْرَى مَخْصُوصًا بِالْعَامَةِ . وَنُصِبَ لِصَاحِبِ الْكُبْرَى كُرْسِيٌّ بِبَابِ دَارِ السُّلْطَانِ وَرِجَالٌ يَتَبَوَّؤْنَ الْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَبْرَحُونَ عَنْهَا إِلَّا فِي تَقْصِيرِهِ ، وَكَانَتْ وَلَايَتُهَا لِلْأَكَابِرِ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ ، حَتَّى كَانَتْ تَرْشِيحًا لِلْوِزَارَةِ وَالْحِجَابَةِ .

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِالْمَغْرِبِ ، فَكَانَ لَهَا حَظٌّ مِنَ التَّنْوِيهِ ، وَإِنْ

لَمْ يَجْعَلُوهَا عَامَّةً ، وَكَانَ لَا يَلِيهَا إِلَّا رِجَالُ الْمُوحِدِينَ وَكِبَرَاؤُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ التَّحَكُّمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ .

ثُمَّ قَسَدَ الْيَوْمَ مَنْصِبَهَا ، وَخَرَجَتْ عَنْ رِجَالِ الْمُوحِدِينَ ، وَصَارَتْ وَلَا يَتُّهَا لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ الْمُصْطَنِعِينَ .

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مَرِّينَ ، لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ ، فَوَلَّيْتُهَا فِي يَبُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ اصْطِنَاعِهِمْ :

وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فِي رِجَالِ التُّرْكِ أَوْ أَعْقَابِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ التُّرْكِ يَتَخَيَّرُونَهُمْ لَهَا فِي النَّظَرِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّلَاحَةِ وَالْمَضَاءِ فِي الْأَحْكَامِ ، لَقَطْعِ مَوَادِّ الْفَسَادِ وَحَسْمِ أَبْوَابِ الدُّعَارَةِ وَتَخْرِيبِ مَوَاطِنِ الْفُسُوقِ وَتَفْرِيقِ مَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ رِعَايَةُ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ . وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(قِسَادَةُ الْأَسَاطِيلِ) : وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَخُطَطِهَا فِي مُلْكِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ، وَمَرْوُوسَةٌ لِصَاحِبِ السَّيْفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا فِي عَرَفِهِمْ : « الْمَلْنَد » بِتَفْخِيمِ اللَّامِ ، مَنْقُولًا مِنْ لُغَةِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ ، فَإِنَّهُ اسْمُهَا فِي اصْطِلَاحِ لُغَتِهِمْ ، وَإِنَّمَا اخْتَصَصَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ بِمُلْكِ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّهُمَا جَمِيعًا عَلَى ضِفَةِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ

جِهَةِ الْجَنُوبِ وَعَلَى عُدُوَّتِهِ الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادُ الْبَرَبِ كُلُّهُمْ مِنْ سَبْتَةٍ إِلَى الشَّامِ
وَعَلَى عُدُوَّتِهِ الشَّمَالِيَّةِ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِيَّةِ وَالرُّومِ إِلَى بِلَادِ
الشَّامِ أَيْضًا وَيُسَمَّى الْبَحْرُ الرُّومِيُّ وَالْبَحْرُ الشَّامِيُّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدُوَّتِهِ .

وَالسَّاكِنُونَ بِسَيْفٍ^(١) هَذَا الْبَحْرُ ، وَسَوَاحِلُهُ مِنْ عُدُوَّتِهِ يُعَانُونَ مِنْ
أَحْوَالِهِ مَا لَا تُعَانِيهِ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ الْبَحَارِ . فَقَدْ كَانَتْ الرُّومُ وَالْإِفْرَنْجَةُ
وَالْقُوطُ بِالْعُدُوَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ
وَمَتَاجِرِهِمْ فِي السُّفُنِ ، فَكَانُوا مَهْرَةً فِي رُكُوبِهِ ، وَالْحَرْبُ فِي أَسَاطِيلِهِ .
وَلَمَّا أَسَفَ مَنْ أَسَفَ مِنْهُمْ إِلَى مُلْكِ الْعُدُوَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِثْلِ الرُّومِ إِلَى
أَفْرِيقِيَّةِ وَالْقُوطِ إِلَى الْمَغْرِبِ أَجَازُوا فِي الْأَسَاطِيلِ وَمَلَكُوهَا ، وَتَغَلَّبُوا عَلَى
الْبَرَبِ بِهَا وَانْتَزَعُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْوَالَهَا ، وَكَانَ لَهُمْ بِهَا الْمُدُنُ الْحَافِلَةُ مِثْلُ
قَرْطَاجَنَةَ وَسَيْبِطَلَةَ وَجَلُولَاءَ وَمِرْنَاقَ وَشِرْشَالَ وَطَنْجَةَ . وَكَانَ صَاحِبُ
قَرْطَاجَنَةَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ ، وَيَبْعَثُ الْأَسَاطِيلَ لِيَحْرِبَهُ
مَشْحُونَةً بِالْعَسَاكِرِ وَالْعُدَدِ . فَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هَذَا الْبَحْرِ السَّاكِنِينَ
حَفَافِيهِ مَعْرُوفَةٌ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ .

وَلَمَّا مَلَكَ الْمُسْلِمُونَ مِصْرَ ، كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى عَمْرِ بْنِ
الْعَاصِ % أَنْ صِفْ لِي الْبَحْرَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنَّ الْبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيمٌ ، يَرْكَبُهُ

(١) بساحله .

خَلَقُ ضَعِيف ، دُودٌ عَلَى عُودٍ . فَأَوْعَزَ حَيْتَدِ يَمْنَعُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رُكُوبِهِ ،
وَلَمْ يَرْكَبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ ، إِلَّا مِنْ افْتَاتَ عَلَى عُمَرُ فِى رُكُوبِهِ ، وَتَالَ
مِنْ عِقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بِعَرْقَجَةَ بْنِ هُرْمَةَ الْأَرْدَى سَيِّدِ بَجِيلَةٍ ، لَمَّا أَغْزَاهُ عَمَانُ
فَبَلَغَهُ غَزْوُهُ فِى الْبَحْرِ ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنَّفَهُ أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ لِلْغَزْوِ .

وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ أَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِى
رُكُوبِهِ ، وَالْجِهَادِ عَلَى أَعْوَادِهِ . وَالسَّبَبُ فِى ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لِيَدَاوِيهِمْ لَمْ
يَكُونُوا مَهْرَةً فِى ثِقَاتِهِ وَرُكُوبِهِ ؛ وَالرُّومُ وَالْإِفْرَنْجَةُ لِمُمَارَسَتِهِمْ أَحْوَالَهُ ،
وَمَرَبَاهُمْ فِى الثَّقَلِ عَلَى أَعْوَادِهِ ، مَرْتُونَ عَلَيْهِ ، وَأَحْكَمُوا الدَّرَاقَةَ بِثِقَاتِهِ .

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ ، وَشَمَخَ سُلْطَانُهُمْ ، وَصَارَتْ أُمَمُ الْعَجَمِ
خَوَلَا لَهُمْ ، وَتَحْتَ أَيْدِيهِمْ ، وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِي صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ يَمْلِكُ
صِنَاعَتِهِ ، وَاسْتَعْدَمُوا مِنَ السَّوَاتِيَةِ فِى حَاجَاتِهِمُ الْبَحْرِيَّةِ أَمَمًا ، وَتَكَرَّرَتْ
مُمَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ وَثِقَاتِهِ ، وَاسْتَحْدَثُوا بُصْرَاءَ بِهَا ، فَشَرُّهُوَ إِلَى الْجِهَادِ
فِيهِ ، وَأَنْشَتُوا السُّفْنَ فِيهِ وَالسَّوَانِي (١) ، وَشَعْنُوا الْأَسَاطِيلَ بِالرِّجَالِ
وَالسَّلَاحِ ، وَأَمْطَرُوا الْعَسَاكِرَ وَالْمُقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ أُمَمِ الْكُفْرِ ،
وَاخْتَصَمُوا بِذَلِكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَكُسُوفِهِمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى
حَاقَتِهِ مِثْلُ الشَّامِ وَأَفْرِيقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ .

(١) المراكب الخيرية .

وَأَوْعَزَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى حَسَّانَ بْنِ السَّعْمَانِ عَامِلِ أَفْرِيقِيَّةَ ،
 بِاتِّخَاذِ دَارِ صِنَاعَةِ بَنِي سُونَسَ لِإِنْشَاءِ الْأَلَاتِ الْبَحْرِيَّةِ حِرْصًا عَلَى مَرَأِسِ
 الْجِهَادِ ، وَمِنْهَا كَانَ فَتْحُ صِقْلِيَّةَ أَيَّامَ رِيَادَةِ اللَّهِ الْأَوَّلِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَغْلَبِ
 عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ شَيْخِ الْفَتَا ، وَفَتْحُ قَوْصَرَةِ أَيْضًا فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ
 كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حَدِيجٍ أَغْرَى صِقْلِيَّةَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَلَمْ يَفْتَحِ
 اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ وَفَتْحَتْ عَلَى يَدِ ابْنِ الْأَغْلَبِ وَقَائِدِهِ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ .
 وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَسَاطِيلُ إِفْرِيقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسِ فِي دَوْلَةِ الْعَبْدِيِّينَ
 وَالْأُمَوِيِّينَ تَتَعَاقَبُ إِلَى بِلَادِهِمَا فِي سَبِيلِ الْفِتْنَةِ فَتَجُوسُ خِلَالَ السَّوَاهِلِ
 بِالْإِفْسَادِ وَالْتَّخْرِيبِ .

وَأَنْتَهَى أَسْطُولُ الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ إِلَى مَاثِي مَرْكَبِ
 أَوْ نَحْوِهَا ، وَأَسْطُولُ أَفْرِيقِيَّةَ كَذَلِكَ مِثْلُهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ ، وَكَانَ قَائِدُ
 الْأَسَاطِيلِ بِالْأَنْدَلُسِ ، ابْنُ دِمَاحِشَ ، وَمَرْفَأُهَا لِلْحَطِّ وَالْإِفْلَاحِ بِجَايَةِ
 وَالْمَرِيَّةِ ، وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهَا مُجْتَمِعَةً مِنْ سَائِرِ الْمَمَالِكِ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ تَتَخَذُ
 فِيهِ السَّفُنُ أَسْطُولَ يَرْجِعُ نَظَرُهُ إِلَى قَائِدٍ مِنَ التَّوَاتِيَةِ يُدَبِّرُ أَمْرَ حَرْبِهِ
 وَسِلَاحِهِ وَمُقَاتِلَتِهِ وَرَيْسُ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَرَّتِهِ بِالرَّيْحِ أَوْ بِالْمَجَادِيفِ وَأَمْرَ
 إِرْسَائِهِ فِي مَرْقَتِهِ . فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لِعَزْوِ مُحْتَمِلٍ أَوْ غَرَضٍ سُلْطَانِيٍّ
 مِنْهُمْ ، عَسَكَرَتْ بِمَرْقَتِهَا الْمَعْلُومِ وَشَحَنَهَا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادِ عَسَاكِرِهِ

وَمَوَالِيهِ ، وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لَوُجُوهِهِمْ وَيَسْطَرُّ إِيَابَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالْغَنِيمَةِ .

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعَهْدِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ، وَعَظُمَتْ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ قَبْلَ بِاسْطِيلِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَامْتَدَّوْا ظَهْرَهُ لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ ، فَكَانَتْ لَهُمْ الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ وَمَلَكَوْا سَائِرَ الْجَزَائِرِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنِ السَّوَاخِلِ فِيهِ مِثْلَ مَيُورَقَّةَ وَمَنُورَقَّةَ وَبَاسَّةَ وَسِرْدَانِيَّةَ وَصِقِلِيَّةَ وَقَوْصَرَةَ وَمَالِطَةَ وَأَقْرِيطَشَ وَقَبْسِرْسَ ، وَسَائِرِ مَمَالِكِ الرُّومِ وَالْإِفْرَنْجِ . وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الشَّيْعِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يُغْزَوْنَ أَسَاطِيلَهُمْ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنُودَ فَتَنْقَلِبُ بِالْظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ . وَافْتَتَحَ مُجَاهِدُ الْعَامِرِيُّ صَاحِبُ دَانِيَّةَ مِنْ مَمْلُوكِ الطَّوَائِفِ جَزِيرَةَ سِرْدَانِيَّةَ فِي أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَارْتَجَعَهَا النَّصَارَى لَوْقَتِهَا . وَالْمُسْلِمُونَ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَغَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هَذَا الْبَحْرِ ، وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَانِيَّةً وَذَاهِبَةً ، وَالْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُجِيزُ الْبَحْرَ فِي الْأَسَاطِيلِ مِنْ صِقِلِيَّةَ إِلَى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمُقَابِلِ لَهَا مِنَ الْعُدُوَّةِ الشَّمَالِيَّةِ ، فَتَوْقِعُ بِمَمْلُوكِ الْأَفْرَنْجِ ، وَتُخْخِنُ فِي مَمَالِكِهِمْ ، كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ بَنِي الْحُسَيْنِ ، مَمْلُوكِ صِقِلِيَّةِ الْقَائِمِينَ فِيهَا بِدَعْوَةِ الْعَبِيدِيِّينَ . وَانْحَارَتْ أُمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَنَابِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مِنْ سَوَاخِلِ الْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِيَّةِ وَجَزَائِرِ الرُّومَانِيَّةِ لَا

يَعْدُونَهَا ، وَأَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءً ^(١) الْأَسَدَ عَلَى
فَرَسَيْتِهِ ، وَقَدْ مَلَأَتْ الْأَكْثَرُ مِنْ بَسِيطِ هَذَا الْبَحْرِ عُدَّةً وَعَدَدًا وَاخْتَلَفَتْ فِي
طَرَفِهِ سِلْمًا وَحَرْبًا ، فَلَمْ تَظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ أَلْوَحٌ .

حَتَّى إِذَا أَدْرَكَ ، الدَّوْلَةُ الْعَبِيدِيَّةُ وَالْأُمَوِيَّةُ الْفُشْلُ وَالْوَهْنُ ، وَطَرَفَهَا
الْإِعْتِلَاكُ ، مَدَّ السَّيْفُ إِلَى أَيْدِيهِمْ إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيَّةِ مِثْلَ صِقْلِيَّةٍ
وَأَفْرِيطَشَ وَمَالِطَةَ فَمَلَكُوها ، ثُمَّ أَلْحَوْا عَلَى سَوَاحِلِ الشَّامِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ
وَمَلَكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلَانَ وَصُورَ وَعَكَّا ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى جَمِيعِ الشُّغُورِ
بِسَوَاحِلِ الشَّامِ ، وَغَلَبُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَبَنَوْا عَلَيْهِ كَنِيْسَةً لِمَظْهَرِ
دِينِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، وَغَلَبُوا بَنِي خَزْرُونَ عَلَى طَرَابُلُسَ ، ثُمَّ عَلَى قَابَسَ
وَصَفَاقِسَ وَوَضَعُوا عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ ، ثُمَّ مَلَكُوا الْمُهَدَّبِيَّةَ مَقَرَّ مُلُوكِ الْعَبِيدِيِّينَ ،
مِنْ يَدِ أَعْقَابِ بَلَكِينِ بْنِ رِيْرِ . وَكَانَتْ لَهُمْ فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ الْكُرَّةُ بِهَذَا
الْبَحْرِ . وَضَعَفَ شَأْنُ الْأَسَاطِيلِ فِي دَوْلَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ ، إِلَى أَنْ انْقَطَعَ ،
وَلَمْ يَعْتَنُوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ لِهَذَا بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمْ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبِيدِيَّةِ
عِنَايَةٌ تَجَاوَزَتْ الْحَدَّ ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ . فَبَطَلَ رَسْمُ هَذِهِ
الْوُظَيْفَةِ هُنَالِكَ ، وَبَقِيَتْ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ ، فَصَارَتْ مُخْتَصَّةً بِهَا .

وَكَانَ النِّجَانِبُ الْغُرَبِيُّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَوْفُورَ الْأَسَاطِيلِ ،

(١) اجترأه عليها .

ثَابِتَ الْقُوَّةَ لَمْ يَتَحَقَّقْ عَدُوٌّ ، وَلَا كَانَتْ لَهُمْ بِهِ كَرَّةٌ ، فَكَانَ قَائِدُ الْأَسْطُولِ
 بِهِ لِعَهْدٍ لِمَثُونَةَ بَنِي مَيْمُونٍ ، رُؤَسَاءَ جَزِيرَةِ قَادِسَ ، وَمِنْ أَيْدِيهِمْ أَخَذَهَا
 عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِتَسْلِيمِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ ، وَانْتَهَى عَدَدُ أَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْمِائَةِ مِنْ
 بِلَادِ الْعُدُوِّتَيْنِ جَمِيعًا .

وَلَمَّا اسْتَفْحَلَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ فِي الْمِائَةِ السَّادِسَةِ ، وَمَلَكَوْا
 الْعُدُوِّتَيْنِ ، أَقَامُوا خُطَّةَ هَذَا الْأَسْطُولِ ، عَلَى أَتَمِّ مَا عُرِفَ وَأَعْظَمِّ مَا عُمِدَ ،
 وَكَانَ قَائِدُ أَسْطُولِهِمْ أَحْمَدُ الصَّقَلِيُّ أَصْلُهُ مِنْ صِدِّ غِيَارِ الْمُوطَنِينَ بِجَزِيرَةِ
 جَرِيَّةٍ مِنْ سُرُوكِشَ ، أَسْرَهُ السُّنَّارَى مِنْ سَوَاحِلِهَا ، وَرَبَّى عَنْدهُمْ ،
 وَاسْتَخْلَصَهُ صَاحِبُ صِقْلِيَّةَ ، وَاسْتَكْفَاهُ ، ثُمَّ هَلَكَ وَوَكِي ابْنُهُ ، فَاسْبَخَطُهُ
 بَعْضُ التُّرَكَاتِ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَحِقَ بِثُونِسَ ، وَتَزَلَّ عَلَى السَّيِّدِ بِهَا
 مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ، وَأَجَارَ مَرَآكِشَ فَتَلَقَّاهُ الْخَلِيفَةُ يُونُسُ بْنُ عَبْدِ
 الْمُؤْمِنِ بِالْمَبْرَةِ وَالْكَرَامَةِ ، وَأَجَزَلَ الصَّلَةَ وَقَلَّدَهُ أَمْرَ أَسَاطِيلِهِ فَجَلَّى فِي
 جِهَادِ أُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَكَانَتْ لَهُ أَثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ
 الْمُوحِدِينَ .

وَأَنْتَهَتْ أَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي الْكَثْرَةِ وَالْإِسْتِجَادَةِ إِلَى مَا
 لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ ، فِيمَا عَهْدَنَاهُ .

وَلَمَّا قَامَ صَلَاحُ الدِّينِ يُونُسُ بْنُ أَيُّوبَ مَلِكُ مِصْرَ وَالشَّامِ لِعَهْدِهِ

بِاسْتِرْجَاعِ ثُغُورِ الشَّامِ مِنْ يَدِ أُمَمِ النِّصْرَانِيَّةِ وَتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ رَجَسِ الْكُفْرِ وَبِنَائِهِ تَتَابَعَتْ أَسَاطِيلُهُمُ الْكُفْرِيَّةُ بِالْمَدَدِ لِيْلِكَ الثُّغُورِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةِ قَرْيَةٍ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ، الَّذِي كَانُوا قَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ ، فَأَمَدُوهُمْ بِالْعَدَدِ وَالْأَفْوَاتِ ، وَلَمْ تَقَاوِمَهُمْ أَسَاطِيلُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، لِاسْتِمْرَارِ الْغَلَبِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْبَحْرِيَّةِ ، وَتَعَدُّدِ أَسَاطِيلِهِمْ فِيهِ ، وَضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ عَنْ مُمَانَعَتِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَشْرَفْنَا إِلَيْهِ قَبْلُ . فَأَرْقَدَ صَلَاحُ السَّيِّدِينَ عَلَى أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ سُلْطَانَ الْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ رَسُولَهُ عَبْدَ الْكَرِيمِ بْنِ مُنْقِذٍ مِنْ بَيْتِ بَنِي مُنْقِذٍ مُلُوكِ شِيزَرِ ، وَكَانَ مَلِكَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَابْقَى عَلَيْهِمْ فِي دَوْلَتِهِ ، فَبَعَثَ عَبْدَ الْكَرِيمِ مِنْهُمْ هَذَا إِلَى مَلِكِ الْمَغْرِبِ طَالِبًا مَدَدَ الْأَسَاطِيلِ ، لِتَحُولِ فِي الْبَحْرِ بَيْنَ أَسَاطِيلِ الْكُفْرِ وَبَيْنَ مَرَامِهِمْ مِنْ إِمْدَادِ النِّصْرَانِيَّةِ بِثُغُورِ الشَّامِ ، وَأَصْحَبَهُ كِتَابَهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ إِنْشَاءِ الْفَاضِلِ الْيَسَانِيِّ يَقُولُ فِي افْتِتَاحِهِ .

« فَتَحَ اللَّهُ لِسَيِّدِنَا أَبْوَابَ الْمَنَاجِحِ وَالْمَيَامِينَ » حَسْبَمَا نَقَلَهُ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الْفَتْحِ الْقَيْسِيِّ .

فَنَقِمَ عَلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ تَجَافِيَهُمْ عَنْ خِطَابِهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَنَاجِجِ الْبِرِّ وَالْكَرَامَةِ وَرَدَّهُمْ إِلَى مُرْسِلِهِمْ ، وَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ بِالْأَسَاطِيلِ ، وَمَا حَصَلَ لِلنِّصْرَانِيَّةِ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ

الاستِطَالَة . وَعَدَمَ عِنَايَةِ الدُّوَلِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَمَا بَعْدَهُ لِشُكَنِ
الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْأَسْتِعْدَادِ مِنْهَا لِلدُّوَلَةِ .

وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ ، وَاعْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ ،
وَأَسْتَوَلَتْ أُمَمُ الْجَلَالِقَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَالْجَاوِ الْمُسْلِمِينَ
إِلَى سِيفِ^(١) الْبَحْرِ ، وَمَلَكَوا الْجَزَائِرَ الَّتِي بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ
الرُّومِيِّ ، قَوَّيَتْ رِيحَهُمْ فِي بَسِيطِ هَذَا الْبَحْرِ ، وَاشْتَدَّتْ شُرُوكَتُهُمْ ،
وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُمْ ، وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى الْمُسَاوَاةِ مَعَهُمْ ،
كَمَا وَقَعَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ مَلِكِ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ ، فَإِنَّ أَسَاطِيلَهُ
كَانَتْ عِنْدَ مَرَامِهِ الْجِهَادَ مِثْلَ عُدَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَعَدِيدِهِمْ .

ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذَلِكَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَسَاطِيلِ لِضَعْفِ الدُّوَلَةِ
وَنِسْيَانِ عَوَائِدِ الْبَحْرِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْبَدَوِيَّةِ وَانْقِطَاعِ الْعَوَائِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ،
وَرَجَعَ النَّصَارَى فِيهِ إِلَى دِينِهِمُ الْمَعْرُوفِ مِنَ الدَّرِيَّةِ فِيهِ وَالْمِرَانِ عَلَيْهِ ،
وَالْبَصَرِ بِأَحْوَالِهِ ، وَغَلَبَ الْأُمَمُ فِي لُجَّةٍ عَلَى أَعْوَادِهِ ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ
فِيهِ كَالْأَجَانِبِ ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ لَهُمُ الْمِرَانُ عَلَيْهِ لَوْ
وَجَدُوا كَثْرَةً مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ ، أَوْ قُوَّةً مِنَ الدُّوَلَةِ تَسْتَجِيشُ لَهُمْ
أَعْوَانًا ، وَتُوضِحُ لَهُمْ فِي هَذَا الْفَرَضِ مَسْلَكًا . وَبَقِيَتْ الرُّبْعَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي

(١) جَانِبِهِ وَمَسَاحِلِهِ .

الدَّوْلَةُ الْغَرِيبَةُ مَحْفُوظَةٌ ، وَالرَّسْمُ فِي مُعَانَةِ الْأَسَاطِيلِ بِالْإِنْشَاءِ وَالرُّكُوبِ مَعْهُودًا ، لَمَّا عَسَاهُ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الْأَعْرَاضِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ ، وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَهْبُونَ الرِّيحَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ . فَمِنْ الْمُسْتَهْبِرِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ عَنْ كُتُبِ الْحَدِثَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكُرَّةِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ ، وَافْتِتَاحِ مَا وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ بِلَادِ الْإِفْرَنْجَةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْأَسَاطِيلِ . وَاللَّهُ وَكِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ .

فصل

في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها^(١)

أعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تنزل واقعة في الخليفة منذ برأها الله . وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، ويتعصب لكل منها أهل عصيته فإذا تذامروا^(٢) لذلك وتواقفت الطائفتان ، إحداهما تطلب الانتقام ، والأخرى تدافع . كانت الحرب . وهو أمر طبعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل .

(١) ما يقرره ابن خلدون هنا لا ينطبق إلا على الشعوب التي عاصرها وشهد أحوالها ، وخاصة العرب والبربر . أما غيرها فلم يستقرها ، ومن ثم لا تندرج أحكامه عليها . ونقص الاستقراء أكبر ما أخذ على ابن خلدون في بعض فصول المقدمة .

(٢) تحاضروا على القتال .

وسببُ هذا الانتقامُ فى الأكثرِ : إما غيرةٌ ومنافسةٌ ؛ وإما عدوانٌ ؛
وإما غضبُ الله ولدينه ؛ وإما غضبُ للملكِ ومعى فى تمهيده .

فالأولُ أكثرُ ما يجرى بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة .

والثانى وهو العدوانُ أكثرُ ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين
بالقفر كالعرب^(١) والترك والتركمان والآكراد وأشباههم ؛ لأنهم جعلوا
أرزاقهم فى رِماحهم ؛ ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم : ومن دافعهم عن
متاعه آذَنُوهُ بالحرب : ولا بُغْيَةَ لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وإِنما
همهم ونُصَبُ أعينهم غَلَبُ الناس على ما فى أيديهم .

والثالث هو المسمى فى الشريعة بالجهاد .

والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والممانعين لطاعتها .
فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة ؛
والصنفان الآخران حروب جهاد وعدل .

وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين :
نوع بالزحف صفوفاً ؛ ونوع بالكُرِّ والفرِّ . أما الذى بالزحف فهو قتال

(١) يعنى الأعراب .

العجم كلهم على تعاقب أجيالهم . وأما الذى بالكُرِّ والفرِّ فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب .

وقتال الزحف أوثقُ وأشدُّ من قتال الكرِّ والفر . وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القِدَاح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدماً . فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق فى القتال وأرهب للعدو ؛ لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع فى إزالته . وفى التنزيل ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصَةٌ ﴾ (١) .

أى يشد بعضهم بعضاً بالثبات . وفى الحديث الكريم ، « المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً » . ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولى فى الزحف (٢) ؛ فإن المقصود من الصف فى القتال حفظ النظام كما قلناه : فمن ولَّى العدو ظهره فقد أخل بالمصاف : وباء بإثم الهزيمة إن وقعت : وصار كسأته جرماً على المسلمين : وأمكن منهم عدوهم ؛ فَعَظُمَ الذنب لعموم المفسدة وتعدّيها إلى الدين يخرق

(١) آية ٤ من سورة الصف .

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاُدْبَارَ . وَمَنْ يُولُوهُمْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَشِئَ الْمَصِيرُ ﴾ (آيتى ١٥ ، ١٦ من سورة الأنفال) .

سِيَاخِه ؛ فَعُدَّ مِنَ الْكِبَائِرِ . وَيُظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْأَدْلَةِ أَنَّ قِتَالَ الزَّحْفِ أَشَدُّ عِنْدَ الشَّارِعِ .

وَأَمَّا قِتَالُ الْكَرِّ وَالْفَرِّ فَلَيْسَ فِيهِ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْأَمَنِ مِنَ الْهَزِيمَةِ مَا فِي قِتَالِ الزَّحْفِ . إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ يَتَخَذُونَ وَرَاءَهُمْ فِي الْقِتَالِ مَصَافًا ثَابِتًا يُلْحَاقُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَرِّ وَالْفَرِّ ، وَيَقُومُ لَهُمْ مَقَامُ قِتَالٍ كَمَا نَذَكَرَهُ بَعْدَ .

ثُمَّ إِنَّ الدُّوْلَ الْقَدِيمَةَ الْكَثِيرَةَ الْجُنُودَ الْمُتَسِّعَةَ الْمَمَالِكِ كَانُوا يَقْسِمُونَ الْجِيُوشَ وَالْعَسَاكِرَ أَقْسَامًا يَسْمُونَهَا كِرَادِيْسَ ، وَيَسُوْنُ فِي كُلِّ كِرَدُوْسٍ ^(١) صَفُوفَةً . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ جُنُودُهُمُ الْكَثْرَةَ الْبَالِغَةَ وَحَشِدُوا مِنْ قَاصِيَةِ النَّوَاحِي اسْتَدْعَى ذَلِكَ أَنَّ يَجْهَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا اخْتَلَطُوا فِي مَجَالِ الْحَرْبِ وَاعْتَوَرُوا مَعَ عَدُوِّهِمُ الطَّمَنَ وَالضَّرْبَ ، فَيَخْشَى مِنْ تَدَافُعِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَجْلِ التَّنْكَرَاءِ ^(٢) وَجَهْلٍ بَعْضُهُمْ بَعْضٍ . فَلِذَلِكَ كَانُوا يَقْسِمُونَ الْعَسَاكِرَ جَمُوعًا وَيَضْمِنُونَ الْمُتَعَارِفِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَيُرَتِّبُونَهَا قَرِيبًا مِنْ التَّرْتِيبِ الطَّبِيعِيِّ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ وَرِئِيسُ الْعَسَاكِرِ كُلِّهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ قَائِدٍ فِي الْقَلْبِ . وَيَسْمَوْنَ هَذَا التَّرْتِيبَ التَّعْبِيَّةَ ، وَهُوَ وَصَلَرُ الْإِسْلَامِ .

(١) « الْكَرْدُوسَةُ بِالضَّمِّ قِطْعَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْخَيْلِ ، وَكَرْدَسُ الْخَيْلِ جَعَلَهَا كَنِيَّةَ كَنِيَّةٍ » (الْقَامُوسُ) .

(٢) التَّنْكَرَاءُ الْمُنْكَرُ وَالْأَمْرُ الشَّدِيدُ وَقَدْ اسْتَعْمَلَهَا ابْنُ خَلْدُونِ هُنَا بِمَعْنَى الْجَهْلِ بِالشَّيْءِ وَهُوَ اسْتِعْمَالُ الْكَلِمَةِ فِي غَيْرِ مَعَانِيهَا الْحَقِيقَةِ .

فيجعلون بين يدي الملك عسكرياً منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره، ويسمونه المقدمة ؛ ثم عسكرياً آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمتة يسمونه الميمنة ؛ ثم عسكرياً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ؛ ثم عسكرياً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة^(١) ؛ ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع ، ويسمون موقفه القلب . فإذا تم لهم هذا الترتيب للحكم ، إما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة ، أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكريين منها أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة ، فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة .

وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالشرق ، وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعد المدى في التعبئة ، فأحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا إليه^(٢) هو معروف في أخباره . وكان في الدولة الأموية بالأندلس أيضاً كثير منه . وهو مجهول فيما لدينا ، لأننا إنما أدركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهي في مجال الحرب إلى التناكر ، بل أكثر الجيوش من الطائفتين معاً يجمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه^(٣) ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه ، فاستغنى عن تلك التعبئة .

(١) ساقة الجيش مؤخرته . وكانها تسوقه سوقاً .

(٢) في الفصل السابق عند حديثه عن القساطيط والسياج .

(٣) قرينه ونظيره .

(فصل) ومن مذاهب الكُرِّ والفرِّ فى الحروب ضربُ المصافِّ وراءَ
عسكرهم من الجمادات والحيوانات العُجْم ، فيتخذونها ملجأ للخيلة فى
كرهْم وفرهم ، يطلبون به ثبات المُقاتلة ليكون أدم للحرب وأقرب إلى
الغلب . وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة .

فقد كان الفرص ، وهم أهل الزحف ، يتخذون القسيلة فى الحروب
ويحملون عليها أبراجها من الخشب أمثال الصرُوح ، مشحونة بالمقاتلة
والسلاح والرَّايات ، ويصفونها وراءهم فى حومة الحرب كأنها حصونٌ
فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم .

وانظر ما وقع من ذلك فى القَادِسيَّة ، وأن فارس فى اليوم الثالث
اشندوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم
وبعجوها^(١) بالسيوف على خَرَاطِيمِها ، فنفرت ونكصت على أعقابها إلى
مَرَابِطِها بالمدائن ، فجفا معسكرُ فارس لذلك وانهزموا فى اليوم الرابع .

وأما الرُّوم وملوك القُوطِ بالاندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون
لذلك الأُسرة ينصبون للملك سريره فى حومة الحرب ، ويحفُّ به من
خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستِماتَةِ دونه ، وترفع الرَّايات فى

(١) « بعجه كمنعه شقه » (القاموس) .

أركان السرير ، ويحلق به سياجٌ آخر من الرماة والرَّجالة^(١) ، فيعظم
هيكل السرير ويصير فتةً للمقاتلة وملجأً للكرّ والفر .

وجعل ذلك القُرسُ أيام القادسية ، وكان رستم جالساً على سرير
نصبه لجلوسه . حتى اختلفت صفوفُ فارس وخالطه العرب في سريه
ذلك ، فتحول عنه إلى القرات وقُتل .

وأما أهل الكرّ والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون
لذلك إبلهم والظَّهر الذى يحمل ظعائنهم فيكون فتةً لهم ، ويسمونها
المجبرة^(٢) .

وليس أمة من الأمم إلا وهى تفعل ذلك فى حروبها ، وتراه أوثق
فى الجولة ، وآمن من الغرة والهزيمة . وهو أمرٌ مشاهد .

وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة ، واعتاضوا عنه بالظَّهير الحامل
للأثقال والفساطيط يجعلونها ساقية من خلفهم ؛ ولا تغنى غطاء الفيلة
والإبل . فصارت العساكر بذلك عرضةً للهزائم ، ومستشعرةً للفرار فى
المواقف .

(١) المشاة .

(٢) لأنها مجبرة إلى الجيش ومشلوبة به .

وكان الحـرب أوك الإسلام كله رـحـفـاً . وكان إنما يعرفون الكـرّ
والفر . لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران : أحدهما أن عدوهم
كانوا يقاتلون رـحـفـاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم ؛

الثانى أنهم كانوا مُستـمـيتـين فى جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ، ولما
رـسـخَ فيهم من الإيمان . والزحف إلى الاستماتة أقرب .

وأول من أبطل الصفّ فى الحروب وصار إلى التعبئة كراديس :
مروان بن الحكم فى قتال الضحّاك الخارجى والخبيرى بعده .

قال الطبرى لما ذكر قتال الخبيرى : « فولى الخوارج عليهم شيان بن
عبد العزيز اليشكرى ويلقب أبا الذئفاء وقاتلهم مروان بعد ذلك
بالكراديس وأبطل الصفّ من يومئذ » انتهى . - فتوسى قتال الزحف
بإبطال الصفّ ، ثم تنوسى الصفّ وراء المقاتلة بما داخل الدول من
الترف . وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون
من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم فى الأحياء فلما حصلوا على ترف
الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والفقر نسوا
لذلك عهد الإبل والطعائن وصعب عليهم اتخاذها ، فخلّفوا النساء فى
الأسفار ، وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية ،

فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية^(١) . وكان ذلك صفتهم في الحرب . ولا يغنى كل الغنائم لأنه لا يدعوا إلى الاستماتة كما يدعوا إليها الأهل والمال . فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيئات وتخرم صفوفهم .

(فصل) ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكده في قتال الكر والفر ، صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج في جندهم ، واختصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر . والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردة للمقاتلة أمامه ، فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف ، وإلا أجفلوا^(٢) على طريقة أهل الكر والفر ، فانهزم السلطان والعساكر بإجفالهم ؛ فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الأمة المتعودة البات في الزحف وهم الإفرنج ، ويرتبون مصافهم المحدث بهم منها . هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر . وإنما استخفوا ذلك للضرورة التي أريناها من تخوف الإجفال على مصاف السلطان . والإفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك ، لأن عادتهم في القتال الزحف ، فكانوا أقوم بذلك من غيرهم . مع أن الملوك في المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب

(١) علق الهوريني على الكلمة بقوله « مراده بالأبنية الحيام ، كما يدل له في قوله في فصل الخندق الآتي قريباً » إذا نزلوا وضمروا أبنيتهم .

(٢) أجفل القوم أسرعوا في الهرب .

والبربرَ وقتالهم على الطَّاعة ؛ وأما فى الجهادِ فلا يستعِينون بهم حذرك من
مآلاتهم على المسلمين . هذا هو الواقعُ بالمغرب لهذا العهد ؛ وقد أبدبنا
سببه . والله بكلُّ شىءٍ عليمٌ .

(فصل) وبلغنا أن أُممَ الترك لهذا العهد قتالهم مناضلةً بالسهام وأن
تعبئة الحرب عندهم بالمصافِّ ، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف ، يضربون
صفًّا وراءَ صفٍّ ، ويترجّلون عن خيولهم ، ويفرغون سهامهم بين
أيديهم ، ثم يتأفصكون جلوساً ، وكل صف رِدءٌ للذى أمامه أن يكبِسَهم
العدو ، إلى أن يتهياً النصرُ لإحدى الطائفتين على الأخرى . وهى تعبئةٌ
محكمة غريبة .

(فصل) وكان من مذاهب الأوك فى حروبهم حفرُ الخنادق على
معسكرهم عندما يتقاربون حذركاً من مَعَرَّةِ البَيَاتِ^(١) والهجوم على العسكر
بالليل لما فى ظلمته ووَخْشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيشُ بالفرار ونجد
النفوس فى الظلمة سترًا من عاره ، فإذا تساووا فى ذلك أُرْجِفَ^(٢) العسكر
ووقعت الهزيمة . فكانوا لذلك يحتفرون الخنادقَ على معسكرهم إذا نزلوا
وضربوا أبنيتهم ، ويدبرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم ،
حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا .

(١) الإيقاع بالعدو ليلاً .

(٢) من معانى الإرجاف . الاضطراب والزلزلة .

وكانت للدول فى أمثال هذا قوةٌ وعليه اقتدارٌ باحتشاد الرجال وجمع الأيدي عليه فى كل منزلٍ من منازلهم ، بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك . فلما خرب العمران وتبعه ضعفُ الدولة وقلةُ الجنود وعدم الفعلة نُسِي هذا الشأنُ جُمْلَةً كأنه لم يكن . والله خيرُ القادرين .

فصل

فى الجباية وسبب قتلها وكثرتها

اعلم أن الجباية أولُ الدولة تكونُ قليلةُ الوراق كشيخة الجملة ^(١) ، وآخرُ الدولة تكونُ كثيرةُ الوراق قليلةُ الجملة .

والسببُ فى ذلك : أن الدولة إن كانت على سنن الدين فليست تقتضى إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية ، وهى قليلةُ الوراق ، لأن مقدار الزكاة من المال قليلٌ كما علمت ، وكذا زكاةُ الحبوب والماشية ، وكذا الجزيةُ والخراجُ وجميعُ المغارم الشرعية ، وهى حدود لا تتعدى .

وإن كانت على سنن التغلب والعصية فلا بدَّ من البداوة فى أولها كما تقدم ، والبداءة تقتضى المسامحةً والمكارمةً وخفضَ الجناح والتجافى عن

(١) جمع وزيمة وهو ما يتروّع على الأشخاص .

أموال الناس ، والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر ، فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزعة التي تجمع الأموال من مجموعها . وإذا قلت الوراثة والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه ، فيكثر الاعتماد . ويتزايد محصول الاغتباط^(١) بقلة المفرم ، وإذا كثر الاعتماد كثرت أعداد تلك الوظائف والوراثة ، فكثره الجباية التي هي جملتها . فإذا استمرت الدولة واتصلت ، وتعاقب ملوكها واحداً بعد واحد واتصفوا بالكيس ، وذهب شر البداوة والسذاجة وخلقها من الإغضاء والتجافي ، وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية إلى الكيس ، وتخلق أهل الدولة حيثئذ بخلق التحذلق^(٢) وتكثرت عوائلهم وحواليجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف ، فيكثرون الوظائف والوراثة حيثئذ على الرعايا والأكره^(٣) والفلاحين وسائر أهل المغارم ، ويزيدون في كل وظيفة ووزعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ، ويضعون المكوس على المبيعات وفي الأبواب كما نذكر بعد ، ثم تدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه ، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهضهم وتصير عادة مفروضة ، لأن تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعميين ولا من هو واضعها ،

(١) الغبطة حسن الحال والاغتباط التبعج بالحال الحسنة (من المصباح والقاموس) .

(٢) حذلق : أظهر الخلق أو ادعى أكثر مما عنده كتحذلق .

(٣) الأكار : الحراث والجمع أكرة . والمعنى من يشتغلون بالزراعة .

إِنَّمَا تَبَيَّنَتْ عَلَى الرَّعَايَا^(١) (كَانَهَا عَادَةً مَفْرُوضَةً ثُمَّ تَزِيدُ إِلَى الْخُرُوجِ عَنْ حَدِّ الْاِعْتِدَالِ فَتَنْهَبُ غِبْطَةَ الرَّعَايَا)^(٢) فِي الْاِعْتِمَارِ لِلذَّهَابِ الْأَمَلِ مِنْ نَفْسِهِمْ بِقِلَّةِ النِّفْعِ ، إِذَا قَابَلَ بَيْنَ نَفْعِهِ وَمَخَارِمِهِ وَبَيْنَ ثَمَرَتِهِ وَفَائِدَتِهِ ، فَتَقْبِضُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْدِي عَنْ الْاِعْتِمَارِ جَمْلَةً ، فَتَنْقُصُ جَمْلَةَ الْجَبَايَةِ حَيْثُ بِنَقْصَانِ تِلْكَ الْوَرَائِعِ مِنْهَا . وَبِمَا يَزِيدُونَ فِي مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ النِّقْصَ فِي الْجَبَايَةِ وَيَحْسِبُونَهُ جَبْرًا لَمَّا نَقَصَ ، حَتَّى تَنْتَهِيَ كُلُّ وَظِيفَةٍ وَوَرِيعةٍ إِلَى غَايَةٍ لَيْسَ وِرَاءَهَا نِفْعٌ وَلَا فَايِدَةٌ ، لِكثَرَةِ الْإِنْفَاقِ حَيْثُ فِي الْاِعْتِمَارِ وَكثَرَةِ الْمَخَارِمِ وَعَدَمِ وَقَاءِ الْفَايِدَةِ الْمَرْجُوءَةِ بِهِ ، فَلَا تَزَالُ الْجَمْلَةُ فِي نَقْصٍ وَمِقْدَارُ الْوَرَائِعِ وَالْوُظَائِفِ فِي زِيَادَةٍ لَمَّا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ جَبْرِ الْجَمْلَةِ بِهَا ، إِلَى أَنْ يَنْتَقِصَ الْعِمْرَانِ بِذَهَابِ الْأَمَالِ مِنَ الْاِعْتِمَارِ ، وَيَعُودُ وَبِالْ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ ، لِأَنَّ فَائِدَةَ الْاِعْتِمَارِ عَائِدَةٌ إِلَيْهَا .

وَإِذَا فَهَمْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ أَنَّ أَقْسَى الْأَسْبَابِ فِي الْاِعْتِمَارِ تَقْلِيلُ مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْمُعْتَمَرِينَ مَا أَمَكْنَ ؛ فَبِذَلِكَ تَنْبَسِطُ النَّفْسُ إِلَيْهِ لِثِقَتِهَا بِإِدْرَاكِ الْمَنْفَعَةِ فِيهِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِكُ الْأُمُورِ كُلِّهَا ، وَ ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٣) .

(١) انفردت : « التيمورية » بهذه الزيادة التي لا يستقيم بدونها المعنى .

(٢) آخر آية من سورة يس .

فصل

فى ضرب المكوس آواخر الدولة

أعلم أن الدولة تكون فى أولها بدوية كما قلنا ، فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائدها ، فيكون خرجها وإنفاقها قليلاً ، فيكون فى الجباية حيثل وفاء بأزيد منها ، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم .

ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة فى الترف وعوائدها ، وتجربى على نهج الدول السابقة قبلها ، فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ، ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة بنفقته فى خاصته ، وكثرة عطائه ، ولا تنفى بذلك الجباية . فتحتاج الدولة إلى الزيادة فى الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة ؛ فيزيد فى مقدار الوظائف والوزائع أولاً كما قلناه ، ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج فى عوائد الترف وفى العطاء للحامية ، ويدرك الدولة الهرم ، وتفسف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية ، فتقل الجباية وتكثر العوائد ، ويكثر بكثرتها أرزاق الجنود وعطاؤهم . فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضرها على البياعات ، ويفرض لها قدرًا معلومًا على الأثمان فى الأسواق ، وعلى أعيان السلم فى أموال المدينة . وهو مع هذا مضطرب لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية .

وربما يزيد ذلك فى أواخر الدولة ريادةً بالغة ، فتكسَد الأسواقُ لفسادِ
الأمال ، ويؤذَن ذلك باختلاك العمران ، ويعود على الدولة ؛ ولا يزال
ذلك يتزايدُ إلى أن تضمحل .

وقد كان وقعُ منه بأمصار المشرقِ فى أخريات الدولة العباسيةِ
والعبّدية كثيرٌ ، وفرضت المغارم حتى على الحاجِّ فى الموسم ، وأسقطَ
صلاحُ الدين أيوب تلك الرسومَ جملةً وأعضاها بآثار الخير . وكذلك وقع
بالأندلس لعهد الطوائف حتى محارسته : يوسف بن تاشفين أميرُ
المرابطين . وكذلك وقع بأمصار الجريدِ بإفريقية لهذا العهد حين استبدَّ بها
رؤساؤها . والله تعالى أعلم .

فصل

فى أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية

اعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترفِ وكثرة العوائد
والنفقات وقصّرَ الحاصلُ من جبايتها على الوفاءِ بِحاجاتها ونفقاتها ،
 واحتاجت إلى مزيدِ المال والجباية ، فتارةً توضع المكوسُ على بيعات
الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك فى الفصل قبله ، وتارةً بالزيادة فى
ألقاب المكوس إن كان قد استحدث من قبل ؛ وتارةً بمقاسمة العمال

والجباية وامتناك^(١) عظامهم ، لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية لا يظهر الحُبان وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية^(٢) ، لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم ، وأن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال . فياخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحالة الأسواق ويحسبون ذلك من إدراك الجباية وتكثير الفوائد ، غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة .

فأولاً : مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وعدم تيسير أسباب ذلك ؛ فإن الرعايا متكاثرون ، في اليسار متقاربون ، ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب ، وإذا رافقهم السلطان في ذلك ، وماله أعظم كثيراً منهم ، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد .

ثم إن السلطان قد يتزعج الكثير من ذلك إذا تعرض له غصاً أو بأيسر

(١) مكة وامتنكه ... امتنعه جميعه (القاموس) .

(٢) أى باسم الجباية أو كما نقول نحن : على أنها ضرائب غير مباشرة تجبى من المستهلكين .

ثمن ، (إذ)^(١) لا يجد من ينافسه فى شرائه فيخس ثمنه على بائعه .

ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلبها كله من ررع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات ، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا نفاق البياعات لما يدعوههم إليه تكاليف الدولة ، فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع ، ولا يرضون فى أثمانها إلا القيم وأريد فيستوعبون فى ذلك ناص^(٢) أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلا من التجارة التى فيها كسبهم ومعاشهم . وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن . وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله ، فيقعده عن سوقه ، ويتعدد ذلك ويتكرر ، ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض أموالهم عن السعى فى ذلك جملة ويؤدى إلى فساد الجباية ، فإن معظم الجباية إنما هى من الفلاحين والتجار ، لاسيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها ؛ فإذا انقبض الفلاحون عن

(١) فى جميع النسخ « أو لا يجد » وهو تحريف كما لا يخفى .

(٢) الناص : الدرهم والدينار (القاموس) .

الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ، ذهبت الجباية جملةً أو دخلها النقص المتفاحش^(١) .

وإذا قَاسَ السلطان بين ما يحصلُ له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقلَّ من القليل . ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء أو بيع ؛ فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس . ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسباً كلها حاصلاً من جهة الجباية . ثم فيه التعرض لأهل عمرانه ، واختلال الدولة بفسادهم ونقصه ؛ فإن الرعايا إذا قعدوا عن تسيير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت النفقات ، وكان فيها إتلاف أحوالهم ، فافهم ذلك .

وكان الفرس لا يملكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة ، ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم ، ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل ، وأن لا يتخذ صنعة فيضر بجيرانه ، ولا يتاجر

(١) يعنى أن حاشية السلطان بعد أن تحصل على السلع لا تعرضها فى الأسواق لتسرى عليها قوانين العرض والطلب ، بل تستدعى التجار وتلزمهم بشرائها بأثمان باهظة ، فتخص بملك أموالهم ، وتبقى هذه البضائع جامدة بأيديهم ، إذ لا يجدون من يشتريها منهم بأثمان مجزية ، فتتغل تجارتهم التى فيها كسبهم ومعاشهم .

فيجب غلاء الأسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون
بخير ولا مصلحة .

وأعلم أن السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده إلا الجباية ؛
وإدارها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال ، والنظر لهم بذلك ؛ فبذلك
تنشط آمالهم ، وتنشرح صدورهم للأخذ في تسمير الأموال وتنميتها ؛
فتعظم منها جباية السلطان . وأما غير ذلك من تجارة أو فلاح فإنما هو
مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة . وقد يتسبب الحال
بهؤلاء المتسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان أنهم
يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدنهم ،
يفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون ، ويسعونها في وقتها لمن تحت
أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن وهذه أشد من الأولى وأقرب إلى
فساد الرعية واختلال أحوالهم . وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله
من هذه الأصناف - أعنى التجار والفلاحين - لما هي صناعته التي نشأ
عليها ، فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على
غرضه من جمع المال سريعاً ، سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم
ولا مكس ، فإنها أجدر بنمو الأموال ، وأسرع في تسميره ؛ ولا يفهم ما
يدخل على السلطان من الضر بنقص جبايته . فينبغي للسلطان أن يحذر

من هؤلاء ، ويُعرضَ على سِمايتهم المصرة بجايته وسلطانة . والله يلهمنا
رشد أنفسنا ، وينفعنا بصلح الأعمال . والله تعالى أعلم .

فصل

فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم أن العدوانَ على الناس فى أموالهم ذهابٌ بأمالهم فى تحصيلها
واكتسابها لما يروونه حيثل من أن غايتها ومصيرها انتهاؤها من أيديهم .
وإذا ذهبت أموالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى
ذلك . وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى
الاكتساب فإذا كان الاعتداء كثيرًا عامًا فى جميع أبواب المعاش كان القعودُ
عن الكسب كذلك لذهابه بالأمالِ جملةً بدخوله من جميع أبوابها . وإن
كان الاعتداء يسيرًا كان الانقباض عن الكسب على نسبه . والعمران
ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمالِ وسعى الناس فى المصالح والمكاسبِ
ذاهبين وجائين . فإذا قعدَ الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن
المكاسبِ كسدت أسواقُ العمرانِ ، وانتقضت الأحوالُ وبذع^(١) الناس فى
الآفاق من غير تلك الإيالة فى طلب الرزق فيما خرجَ عن نطاقها . فحفظُ
ساكن القطرِ ، وختلُ دياره ، وخربت أمصاره ، واختل باختلاله حالُ

(١) لبذعوا : تفرقوا ولفروا .

الدولة والسلطان ؛ لما أنها صورةٌ للعرمان تفسد بفسادِ مادتها ضرورة .
وانظر فى ذلك ما حكاه السعوى فى أخبار الفرس عن المؤيدان صاحب
الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام ، وما عرض به للملك فى إنكار ما كان
عليه من الظلم والغفلة عن عائلته على الدولة ، بضرب المثال فى ذلك
على لسان اليوم حين سمع الملك صوتها وسأله عن فهم كلامها فقال له :
إن يوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى ، وأنها شرطت عليه عشرين قرية من
الخراب فى أيام بهرام فقبل شرطها ؛ وقال لها : إن دامت أيام الملك
أقطعك ألف قرية ، وهذا أسهل مرام . فتنبه الملك من غفلته وخلاً
بالمؤيدان وسأله عن مراده ، فقال : أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا
بالشريعة ، والقيام لله بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ؛ ولا قوام
للشريعة إلا بالملك ؛ ولا عزٌ للملك إلا بالرجال ؛ ولا قوام للرجال إلا
بالمال ؛ ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ؛ ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل .
والعدل الميزان المنسوب بين الخليفة ، نصبه الرب وجعل له قِيماً ، وهو
الملك . وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها
وعمارها ؛ وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال ، وأقطعها الحاشية
والخدم وأهل البطالة ، فتركوا العمارة ، والنظر فى العواقب وما يصلح
الضياع ، وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك . ووقع الحيف على من
بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع ؛ فأنجلوا عن ضياعهم ، وخلوا
ديارهم ، وآدوا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها ، فقلت العمارة وخربت

الضياع وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع فى ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التى لا تستقيم دعائم الملك إلا بها .

فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر فى ملكه ، وانتزعت الضياع من أيدي الخاصة وردت على أربابها ، وحملوا على رؤسهم السالفة وأخذوا فى العمارة ، وقوى من ضعف منهم ، فعمرت الأرض ، وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج ، وقويت الجنود ، وقطعت مواد الأعداء ، وشجعت الثغور ، وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه ، فحسنت أيامه ، وانتظم ملكه . فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب لل عمران ، وأن عائدة الخراب فى العمران على الدولة بالفساد والانتقاص .

ولا تنظر فى ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التى بها ، ولم يقع فيها خراب واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر . فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر ، كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً ؛ لأن النقص إنما يقع بالتدريج . فإذا خفى بكثرة الأحوال واتساع الأعمال فى المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين . وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر ، ونجى الدولة الأخرى ، فترفعه

يَجِدُّهَا ، وَتَجِبُ النِّقْصُ الَّذِي كَانَ خَفِيًّا فِيهِ ، فَلَا يَكَادُ يَشْعُرُ بِهِ ، إِلَّا أَنْ ذَلِكَ فِي الْأَقْلُ النَّادِرُ .

وَالْمَرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ حَصُولَ النِّقْصِ فِي الْعُمَرَانِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ أَمْرٌ وَاقِعٌ لَا يَدُ مِنْهُ لَمَّا قَدِمَتْهُ وَوَبَّأَهُ عَائِدٌ عَلَى الدُّوَلِ .

وَلَا تَحْسِبَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا هُوَ أَخْذُ الْمَالِ أَوْ الْمَلِكِ مِنْ يَدِ مَالِكِهِ مِنْ غَيْرِ عَوَضٍ وَلَا سَبَبٍ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ ، بَلِ الظُّلْمُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ . وَكُلَّفَ مِنْ أَخْذِ مَلِكٍ أَحَدٌ أَوْ غَضَبِهِ فِي عَمَلِهِ أَوْ طَلَبِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْ فِرَاضٍ عَلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَفْرُضْهُ الشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ . فَجَبَاةُ الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلَمَةٌ ، وَالْمَعْسُدُونَ عَلَيْهَا ظَلَمَةٌ ، وَالْمُتَتَبُونَ لَهَا ظَلَمَةٌ ، وَالْمَانِعُونَ لِحُقُوقِ النَّاسِ ظَلَمَةٌ وَغَضَابُ الْأَمْوَالِ عَلَى الْعُمُومِ ظَلَمَةٌ ؛ وَبِإِلَاقَةِ ذَلِكَ كُلِّهِ عَائِدٌ عَلَى الدُّوَلَةِ بِخُرَابِ الْعُمَرَانِ الَّذِي هُوَ مَادَتُهَا لِإِذْهَابِهِ الْأَمَالَ مِنْ أَهْلِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ الْمَقْصُودَةُ لِلشَّارِعِ فِي تَحْرِيمِ الظُّلْمِ ، وَهُوَ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ فَسَادِ الْعُمَرَانِ وَخَرَابِهِ ، وَذَلِكَ مُؤَدِّنٌ بِانْقِطَاعِ النَّوعِ الْبَشَرِيِّ ، وَهِيَ الْحِكْمَةُ الْعَامَّةُ الْمُرَاعَاةُ لِلشَّرْعِ فِي جَمِيعِ مَقَاصِدِهِ الضَّرُورِيَّةِ الْخَمْسَةِ ، مِنْ حِفْظِ الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ . فَلَمَّا كَانَ الظُّلْمُ كَمَا رَأَيْتَ مُؤَدِّنًا بِانْقِطَاعِ النَّوعِ لَمَّا أَدَّى إِلَيْهِ مِنْ تَخْرِيبِ الْعُمَرَانِ ، كَانَتْ حِكْمَةُ الْحَفْظِ فِيهِ مُوجُودَةً ، فَكَانَ تَحْرِيمُهُ مِهْمًا . وَأَدْلَتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ كَثِيرَةٌ ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَأْخُذَهَا قَانُونُ الضَّبْطِ وَالْحَصْرِ .

ولو كان كلُّ واحدٍ قادراً عليه لوضع بإِزائه من العقوبات الزَّاجرة ما وضع بإِزاء غيره من المفْسِدات للنَّوع ، التي يقدَّر كلُّ أحدٍ على اقترافها من الزُّنا والقتل والسُّكر ، إلَّا أنَّ الظلم لا يقدَّر عليه إلَّا من لا يقدَّر عليه ، لأنَّه إنَّما يقع من أهلِ القُدرة والسُّلطان . فبُلوغُ في ذمِّه وتكريرُ الوعيد فيه ، عسى أن يكونَ الراجعُ فيه للقادرِ عليه في نفسه . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ^(١) .

وَلَا تَقُولَنَّ إِنِ الْعُقُوبَةُ قَدْ وَضِعَتْ بِإِزَاءِ الْحِرَابَةِ ^(٢) فِي الشَّرْعِ ، وَهِيَ مِنْ ظَلَمِ الْقَادِرِ ؛ لِأَنَّ الْمَحَارِبَ زَمَنَ حِرَابَتِهِ قَادِرٌ . فَإِنَّ فِي الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ طَرِيقَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُولَ : الْعُقُوبَةُ عَلَى مَا يَقْتَرِفُهُ مِنَ الْجُنَايَاتِ فِي نَفْسٍ أَوْ مَالٍ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْمَطَالَبَةِ بِجِنَايَتِهِ ، وَأَمَّا نَفْسُ الْحِرَابَةِ فَهِيَ خِلْوٌ مِنَ الْعُقُوبَةِ . الطَّرِيقُ الثَّانِي أَنْ تَقُولَ : الْمَحَارِبُ لَا يوصفُ بِالْقُدْرَةِ ؛ لِأَنَّا إِنَّمَا نَعْنِي بِقُدْرَةِ الظَّالِمِ الْيَدَ الْمَبْسُوطَةَ الَّتِي لَا تَعَارِضُهَا قُدْرَةٌ ؛ فَهِيَ الْمُؤَذِّنَةُ بِالْحِرَابِ ؛ وَأَمَّا قُدْرَةُ الْمَحَارِبِ فَإِنَّمَا هِيَ إِخَافَةٌ يَجْعَلُهَا ذُرِيَعَةً لِأَخْذِ الْأَمْوَالِ ؛ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهَا يَبِيدُ

(١) آخر آية ٤٦ من سورة فصلت .

(٢) الحِرابَةُ هي قطع الطريق . وعقوبتها القتل أو الصلب أو كلاهما ممَّا ولكل عقوبة حالتهما التي تمجد تفصيلها عند الفقهاء .

الكل موجوداً شرعاً وسياسةً ؛ فليست من القدر المؤذن بالخراب . والله قادرٌ على ما يشاء .

(فصل) ومن أشدَّ الظُّلماتِ وأعظمِها في إفسادِ العمرانِ تكليفُ الأعمالِ وتسخيرُ الرعايا بغيرِ حقٍّ . وذلك أن الأعمالَ من قبيل الممتلكاتِ كما سَنِينُ في باب الرِّزْقِ^(١) ؛ لأن الرِّزْقَ والكسبَ إنما هو قيمُ أعمالِ أهلِ العمرانِ . فإذا مَسَعِيهِمْ وأعمالُهم كُلُّها ممتلكاتٌ ومكاسبٌ لهم ، بل لا مكاسبَ لهم سِوَاهَا ؛ فإن الرِّعيَةَ المَستَمِلِينَ في العِمارةِ إنما معاشُهم ومكاسبُهم من اعتمادِهم ذلك . فإذا كُلِّفُوا العملَ في غيرِ شأنهم واتَّخِذُوا سُخْرِيًا في معاشهم بطلَ كسبُهم واغْصَبُوا قيمةَ عملهم ذلك ، وهو ممتلكاتهم فدخلَ عليهم الضَّرُّ ، وذهبَ لهم حظٌّ كبيرٌ من معاشهم ، بل هو معاشهم بالجملة . وإن تكررَ ذلك أَفْسَدَ آمالُهم في العِمارةِ وقعدُوا من السعيِ فيها جملةً ؛ فأدَّى ذلك إلى انتقاصِ العمرانِ وتخريبِهِ ، والله سبحانه وتعالى أعلمُ وبه التوفيقُ .

(فصل) وأعظمُ من ذلك في الظُّلمِ وإفسادِ العمرانِ والدَّولةِ التسلُّطُ على أموالِ النَّاسِ ، بشراءِ ما بين أيديهم بأبخسِ الأثمانِ ، ثم قرَضِ البضائعَ عَلَيْهِمْ بأَرْفَعِ الأثمانِ على وجهِ الغصبِ والإكراهِ في الشراءِ والبيعِ ،

(١) يقصد الباب الخامس « في اللماش ووجوهه » الخ .

وربما تُفرض عليهم تلك الأثمان على (الترانخي ^(١)) والتأجيل ، فيتعلّلون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحواله الأسواق في تلك البضائع التي فرضت بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان ، وتعود خسارة ما بين الصفتين على رؤوس أموالهم . وقد يعم ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع ، وسائر السوق وأهل الدكاكين في المأكّل والفواكه ، وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين ، فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات ، وتتوالى على الساعات ، وتحذف برؤوس الأموال ، ولا يجدون عنها ^(٢) وكيفية ^(٣) إلا القعود عن الأسواق لذهاب رموس الأموال في جبرها بالآرياح ^(٤) ، ويتأقل الوردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك ، فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا ، لأن عامته من البيع والشراء . وإذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم ، وتنقص جباية السلطان أو تفسد ، لأن معظمها من أواسط الدولة ، وما بعدها إنما هو من المكوس على

(١) في جميع النسخ : النواحي ، ولا يستقيم به للمنى .

(٢) يعنى لا يجدون مفرًا ولا متدحًا وهو استعمال للكلمة في غير معناها الاصلى .

(٣) هكذا في جميع النسخ ، ولا بد أن يكون هنا سقط وتحريف ، والوضع الصحيح للعبارة هو ما يلى : « لذهاب رموس الأموال والعجز عن جبرها بالآرياح » أى إن جزءاً من رؤوس أموالهم قد ذهب في ثمن تلك البضائع التي فرضت عليهم بأكثر من ثمنها الطبيعي ، ولم تمكنهم حالة السوق من تحقيق ربح يجبر ما خسروه انظر ج ٢ ص ٨٥٥ منشورة د. وافي .

اليَاعَاتِ كَمَا قَدَمْنَاهُ^(١) . وَيُؤَوَّلُ ذَلِكَ إِلَى تَلَاثَى الدَّوْلَةِ وَفَسَادِ عَمْرَانِ
الْمَدِينَةِ . وَيَطْرُقُ هَذَا الْخَلْلُ عَلَى التَّدْرِيجِ وَلَا يَشْعُرُ بِهِ .

هَذَا مَا كَانَ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الذَّرَائِعِ وَالْأَسْبَابِ إِلَى أَخْذِ الْأَمْوَالِ ، وَأَمَّا
أَخْذُهَا مَجَانًّا وَالْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحُرْمَتِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ
وَأَعْرَاضِهِمْ فَهُوَ يَقْضَى إِلَى الْخَلْلِ وَالْفَسَادِ دَفْعَةً ، وَتَنْتَقِضُ الدَّوْلَةُ سَرِيعًا بِمَا
يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ الْمَقْضَى إِلَى الْإِنْتِقَاضِ .

وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ حَظَرَ الشَّرْعُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ الْمَكَايَسَةَ^(٢) فِي
الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ، وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، سَدًّا لِأَبْوَابِ الْمَفَاسِدِ
الْمَقْضِيَةِ إِلَى انْتِقَاضِ الْعَمْرَانِ بِالْهَرَجِ أَوْ بَطْلَانِ الْمَعَاشِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ السَّدَّاعِيَ لِذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ حَاجَةٌ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ إِلَى
الْإِكْتِنَارِ مِنَ الْمَالِ بِمَا يَفْرَضُ لَهُمْ مِنَ التَّرْفِ فِي الْأَحْوَالِ ، فَتَكْثُرُ نَفَقَاتُهُمْ
وَيَعْظُمُ الْخَرْجُ وَلَا يَفِي بِهِ الدَّخْلُ عَلَى الْقَوَائِنِ الْمَعْتَادَةِ ، فَيَسْتَحْدِثُونَ أَلْقَابًا
وَوُجُوهاً يَوْسَعُونَ بِهَا الْجَبَايَةَ لِيَفِي لَهُمْ الدَّخْلُ بِالْخَرْجِ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّرْفُ

(١) انظر الفصول ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ من هذا الباب ، وخاصة فصل ٤١ .

(٢) المكايسة في البيع في عرف الفقهاء هي المتالبة التي تتمثل في المساومة ومحاولة كل من
البائع والمشتري أن يصل إلى الثمن الذي يحقق فائدته . وفي الحديث : إنما كسبتك
لأخذ جملتك ، أي غلبتك بالكياسة .

يزيد ، والخرجُ بسببه يكثر ، والحاجة إلى أموال الناس تشتد ، ونطاق الدولة بذلك يزيد ، إلى أن تنمحي دائرتها ويذهب رسمُها ويغلبها طالبها ، والله أعلم .

فصل

فى أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدّمنا ذكر العوارض بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد ، وبينّا أنها تحدث للدولة بالطبع ، وأنها كلها أمورٌ طبيعية لها . وإذا كان الهرم طبيعياً فى الدولة كان حدوثه بمشابهة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم فى المزاج الحيوانى .

والهرم من الأمراض المزمنة التى لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها ؛ لما أنه طبيعى ، والأمور الطبيعية لا تتبدل . وقد يتنبه كثيرٌ من أهل الدول من له يقظة فى السياسة ، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ، ويظن أنه ممكن الارتفاع ، فيأخذ نفسه بتلافى الدولة ، وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم ؛ وليس كذلك ، فإنها أمور طبيعية للدولة ، والعوائد هى المانعة له من تلافىها والعوائد منزلة طبيعية أخرى ؛ فإن من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديساج ، ويتحلون بالذهب فى السلاح والمراكب ،

ويحجبون عن الناس فى المجالس والصلوات ، فلا يمكنه مخالفة سلفه فى ذلك إلى الخشونة فى اللباس والزى والاختلاط بالناس ؛ إذ العوائد حيثئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه .

ولو فعله لرمى بالجنون والوسواس فى الخروج عن العوائد دفعة ، وخشى عليه عائدة ذلك وعاقبته فى سلطانه . وانظر شأن الأنبياء فى إنكار العوائد ومخالفتها ، لولا التأيد الإلهى والنصر السماوى . وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس . فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهام الأبهة ، فتسرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضى الأمر .

وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها إيماضة الخمود كما يقع فى الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال ، وهى انطفاء . فاعتبر ذلك ، ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته فى أطراد وجوده على ما قدر فيه .
و ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (١) .

(١) آخر آية ٣٨ من سورة الرعد .

فصل فى كيفية طروق الخلل للدولة

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما : فالأول : الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند ؛ والثانى : المال الذى هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال . والخلل إذا طرّق الدولة طرقها فى هذين الأساسين . فلنذكر أولاً طروق الخلل فى الشوكة والعصبية ؛ ثم نرجع إلى طروقه فى المال والجباية .

١ - واعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية ، وأنه لا بد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستبعة لها ، وهى عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة : فإذا جاءت الدولة طيعةً للملك من الترف وجدع أنوف أهل العصبية ، كان أول ما يجدع أنوف عشيرته وذرى قرياه المقاسمين له فى اسم الملك . فيستبد فى جدع أنوفهم بما بلغ من سواهم . ويأخذهم الترف أيضاً أكثر من سواهم لكانهم من الملك والعز والغلب ، فيحيط بهم هادمان وهما : الترف والقهر . ثم يصير القهر آخرًا إلى القتل لما يحصل من مرضى قلوبهم عند رؤسوخ الملك لصاحب الأمر ، فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه ، فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذى تعودوا الكثير منه ، فيهلكون ويقلون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم ، وهى العصبية الكبرى التى كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها ، فتتحل عروتها ، وتضعف

شكيمتها، ويستبدل عنها بالبطانة^(١) من موالى النعمة وصنائع الإحسان ، ويتخذ منهم عصبية . إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمية ، لفقدان الرحم^(٢) لما جعل الله فى ذلك . فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية ، ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى ، فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسراً طبيعياً ، فيهلكهم صاحب الدولة ، ويتبعهم بالقتل واحداً بعد واحد . ويقلد الآخر من أهل الدولة فى ذلك الأول ؛ مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذى قدمنا . فيستولون عليهم الهلاك بالترف والقتل ، حتى يخرجوا عن صيغة تلك العصبية ، وينسوا نغرتها وسورتها^(٣) ويصيروا أجراء على الحماية ، ويقولون لذلك ، فتقل الحماية التى تنزل بالأطراف والشغور . فيتجاسر الرعايا على نقض^(٤) الدعوة فى الأطراف ، ويبادر الخوارج على الدولة من الأعيان وغيرهم إلى تلك الأطراف ، لما يرجون حيثن من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم ، وأمنهم من وصول الحامية إليهم . ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضيق حتى تصير الخوارج فى أقرب الأماكن إلى مركز الدولة .

(١) فى جميع النسخ « البطالة » باللام ، وهو تحريف واضح .

(٢) انظر لتفصيل ذلك الفصل الثامن من الباب الثانى فى أن العصبية إما تكون من الالتحام بالنسب وما فى معناه .

(٣) وردت هذه الجملة محرفة فى جميع النسخ : ففى بعضها « ويفشو بعزتها وثورتها » .

(٤) فى جميع النسخ : « على بعض الدعوة » ولعله من خطأ النسخ .

وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثة على قدر قوتها فى الأصل كما قلناه^(١) ، ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها ، ولكن إدعائنا لأهل عصبيتها ولغلبهم المعهود .

واعتبر هذا فى دول العرب فى الإسلام ، انتهت أولا إلى الأندلس والهند والصين . وكان أمر بنى أمية نافذا فى جميع العرب بعصبة بنى عبد مناف ، حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يرد أمره . ثم تلاشت عصبة بنى أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا . وجاء بنو العباس فغضبوا أئمة بنى هاشم ، وقتلوا الطالبيين وشرذوهم ، فانحلت عصبة عبد مناف وتلاشت ، ونجاس العرب عليهم ، فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بنى الأغلب بإفريقية وأهل الأندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ، ثم خرج بنو إدريس بالمغرب ، وقام البربر بأمرهم إدعائنا للعصبة التى لهم ، وأما أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة .

فإذا خرج الدعاة آخرًا فيتغلبون على الأطراف والقاصية ، وتحصل لهم هناك دعوة ومُلْك تنقسم به الدولة . وربما يزيد ذلك متى رادت الدولة نقصًا ، إلس أن ينتهى إلى المركز ، وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف ، فتهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها .

(١) انظر الفصل الخامس والأربعون من هذا الباب .

وربما طال أمدُها بعد ذلك فتستغنى عن العصبية بما حصلَ لها من الصبغة في نفوس أهل إِيالتها ، وهى صبغة الانقيادِ والتسليم منذ السنين الطويلة التى لا يعقل أحدٌ من الأجيال مبدأها ولا أوليتها فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة ، فيستغنى بذلك عن قوة العصائب ، ويكفى صاحبها بما حصل لها فى تهديد أمرها ، الأجراء على الحامية من جُنْدَى ومُرْتزَق ، ويعضد ذلك ما وقع فى النفوس عامة من التسليم ؛ فلا يكادُ أحدٌ أن يتصور عصيًّا أو خروجًا إلا والجمهورُ منكروُن عليه مخالفون له ؛ فلا يقدرُ على التصدى لذلك ولو جهد جهده . وربما كانت الدولة فى هذا الحال أسلم من الحوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم . فلا تكادُ النفوسُ تحدث سرًّا بمخالفة ، ولا يختلج فى ضميرها إنحرافٌ عن الطاعة . فيكون أسلم من الهرج والانتفاض الذى يحدث من العصائب والعشائر . ثم لا يزالُ أمرُ الدولة كذلك وهى تتلاشى فى ذاتها ، شأن الحرارة الغريزية فى البدن العادم للغذاء ، إلى أن تنتهى إلى وقتها المقدور . و ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ^(١) ؛ ولكل دولة أمد . ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ^(١) وهو الواحد القهار .

(١) آخر الآية ٣٧ من سورة الرعد .

٢ - وأما الخللُ الذي يتطرقُ من جهةِ المال ، فأعلم أن الدولةَ في أولها تكونُ بدويَّةً كما مر ، فيكون خُلُقُ الرِّفق بالرعايا والقصد في النفقات ، والتَّعَفُّفُ عَنِ الأموال ، فَتَخَافِي عن الإِمعانِ في الجِبَايَةِ ، والتَّحَذُّلِ والكَيْسِ في جمع الأموال وحُسنِ العَمَالِ ، ولا داعيةَ حَيْتُزُ إلى الإسْرَافِ في النفقة ، فلا محتاجُ الدولة إلى كثرةِ المال . ثم يحصلُ الاستيلاءُ ويعظمُ ، ويستفحلُ الملك ، فيدعو إلى الترف ، ويكثر الإنفاقُ بسببه ، فتعظمُ نفقاتُ السُّلطانِ وأهل الدولة على العموم ، بل يتعدى ذلك إلى أهلِ المِصرِ ويدعو ذلك إلى الزيادةِ في أعطيات الجنودِ وأرزاقِ أهلِ الدولة . ثم يعظمُ الترفُ فيكثر الإسْرَافُ في النفقات ، ويتشربُ ذلك في الرعية ، لأنَّ الناسَ على دينِ ملوكها وعوائدها . ويحتاجُ السُّلطانُ إلى ضَرْبِ المكُوسِ على أثمانِ السِّبَاعَاتِ في الأسواقِ لِإِذْراكِ الجِبَايَةِ لما يراه من تَرْفِ المَدِينَةِ الشَّاهِدِ عليهم بالرِّفَّةِ ، ولما يحتاجُ هوَ إليه من نفقاتِ سُلْطَانِهِ وأرزاقِ جنده . ثم تزيد عوائد الترفِ فلا تَقْىَ بها المكُوسُ ، وتكونُ الدولةُ قد استنفذت في الاستِطالةِ والقَهْرِ لمن تحت يدها من الرعايا ، فتمتدُ أيديهم إلى جَمْعِ المالِ مِنْ أموال الرعايا من مكس أو تِجَارَةٍ أو نَقْدٍ في بعض الأحوال ، يُشْبِهَةُ أو بغيرِ شُبْهَةٍ . ويكونُ الجنْدُ في ذلك الطُّورِ قد تَجَاسَرَ على الدولةِ بما لحِقَها من الفشلِ والهَرَمِ في العصية فتوقع ذلك

(١) من الآية ٢٠ من سورة المزمل .

منهم ، وتُدأوى بسكينة العَطَايا وكثرة الإنفاق فيهم ، ولا تحبُّ عن ذلك وليجة . ويكون جبة الأموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا بكثرة الجباية وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من جاههم . فيُتَوَجَّه إليهم باحتجان الأموال من الجباية ، وتفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقْد ، فتعمهم النكبات والمصادرات واحداً واحداً إلى أن تذهب ثروتهم وتُتَلَشَّى أحوالهم ، ويُفَقَد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم . وإذا اصطَلِمَت نعمتهم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواهم . ويكون الوهن في هذا الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستِطالة والقهر ، فتتصرف مياسة صاحب الدولة حيثشذ إلى مدارة الأمور ببذل المال ، ويراه أرفع من السيف لقله غنائه ؛ فتعظم حاجته إلى الأموال ، ريادة على النفقات وأرزاق الجند ، ولا يغنى فيما يريد^(١) . ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحي ، والدولة تنحلُّ عراها في كل طور من هذه إلى أن تُفْقِى إلى الهلاك ، وتعرض لاستيلاء الطلاب . فإن قصدها طالب انتزعها من أيدي القائمين بها ، وإلا بقيت وهي تتلشى إلى أن تضمحل كالذئبال في السراج إذا فنى ريثه وطفىء . والله مالك الأمور ، ومدبر الأكوان ، لا إله إلا هو .

(١) أى لا يغنى ما يبذله فى تحقيق ما يريد .

المفتار من مقدمة ابن خلدون

رقم الايداع

٩٨/١٠٠٩٣

I.S.B.N. 977-01-5848-8



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المرفقة والحكمة من خلال
إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا
نُدشّث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة في كل بيت.

سُيِّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة
الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثري الوجدان بكتاب
في متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية
وتعمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى في كل العالم الثالث،
ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ في
وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر
التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مائة وخمسون قرشاً

مكتبة الأسرة
١٩٩٨ مهرجان القراءة للجميع